

أنواع النعم

في ضوء الكتاب والسنة

د. عبد الله بن عبد المحسن التويجري
قسم السنة وعلومها - كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة :

إِنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٦﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣).

أما بعد: فإنَّ أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

إِنَّ نعم الله على عباده لا تحصى كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ

(١) سورة آل عمران، الآية (١٠٢) .

(٢) سورة النساء، الآية (١) .

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٧٠-٧١) .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾
وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنَّ
الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿١﴾^(١)، فنعم الله علينا متعددة ومتنوعة، نعم في
الدِّين والدُّنْيَا، ونعم في الكون والحياة، ونعم في النفس والأهل والمال، نعم
حسية وأخرى معنوية. كلُّما تدبرها المسلم وقلَّب فيها النظر ازدادت في قلبه
عظمة الباري، واستشعر كبير فضل الله عليه، وهذا هدف رئيسي من أهداف
التذكير بهذه النعم، لأن العبد لا يقدم على معصية الخالق أو حتى يقصِّر في
طاعته وهو يدرك هذه النعم التي يتسرَّب بها، بل منها ما يسبق نشأته ويتبعه
بعد موته. وهذه النعم قد وردت النصوص الكثيرة مذكِّرة بها تصرُّيحاً وتلمييحاً،
ولكن الجهل أحياناً وغلبة الغفلة أحياناً صرفت العقول عن استشعارها، والقيام
بالواجب تجاهها، وكنت في البداية حين لاحظت هذه الحال على كثير من
الناس وما ترتب على ذلك من غياب عبادة الشكر - مع أهميتها وعظيم قدرها
- عن واقع حياتهم، اعتنيت بجانب الشكر لله على هذه النعم العظيمة، وبالبحث
والنظر تبَيَّن لي عدد من الرسائل والبحوث في هذا الموضوع إلا أن فيها من
القصور وعدم الترتيب ما يستدعي المشاركة في لَمِّ شتات الموضوع، ويتيح
مساحة يمكن ملؤها بما تيسَّر من النصوص النبوية وشروح الأئمة والمحققين، ولذا
نشطت وكتبت بحثاً في ذلك بعنوان: "الأحاديث الواردة في شكر النعم جمعاً
وتحريجاً ودراسة وتعليقاً"، ثمَّ ظهر لي بعد ذلك أن الموضوع يعتبر ناقصاً ما لم
يحصل بيان النعم وعرضها وتقسيمها بشكل يسهل تصورها على المسلم، كيف

(١) سورة إبراهيم، الآيات (٣٢-٣٤).

لا والشكر يعتبر نتيجة لحصول النعم، ولذا عزمت - مستعيناً بالله - على جمع النصوص - من الأحاديث والآثار - الواردة في النعم، وفق المنهج الذي اتبعته في جمع وسياق وترتيب النصوص الواردة في شكر النعم حتى يكون هذا البحث - بإذن الله - بمثابة التمهيد والتقديم لذلك السابق.

ومما يجب أن يعلم أن الله سبحانه عظم أمر نعمه وامتن بها على عباده وذكر بها جملة وتفصيلاً في مواضع كثيرة من كتابه، ومن أهم هذه المواضع ما جاء في سورة النحل حيث يقول الباري سبحانه: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ وَاللَّعَنَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنْسَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْتَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ

مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ^١ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿٣٠﴾ وَهُوَ الَّذِي
سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٣١﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿٣٢﴾ وَعَلَّمَتِ الْبِلَاقِلَ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣٣﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ^٢
أَفَلَا تَذْكُرُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِن تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٦﴾^(١)، حقاً إننا مهما حاولنا تعداد نعم الله وتصويرها فإننا لا
نستطيع تعدادها ولا الإحاطة بها، يقول العلامة ابن سعدي رحمه الله معلقاً على
هذه الآيات^(٢) : هذه السورة - يعني النحل - تسمى سورة النعم، فإن الله ذكر
في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها، فأخبر أنه
خلق السماوات والأرض بالحق، ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما، وما
له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما سكناً لعباده الذين يعبدونه، بما
يأمرهم به في الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله، ولهذا نزه نفسه عن شرك
المشركين به.

ولما ذكر خلق السماوات والأرض وذكر خلق ما فيهما، وبدأ بأشرف ذلك
وهو الإنسان، فقال : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾^٣، لم يزل يدبرها ويربيها

(١) سورة النحل، الآيات (٣-١٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٨٣-١٩٠).

وينميها، حتى صارت بشراً تاماً، كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا استتم فخر بنفسه، وأعجب بها ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، ونسي خلقه الأول، وما أنعم عليه به من النعم، فاستعان بها على معاصيه، فليشكر العبد ربّه الذي أوصله إلى هذه الحال التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكر فيما هي مهياة له، مستعدة، تعقل ماتراه وتسمعه، لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظرة حظ البهائم التي لا عقل لها، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الذي يسّر لكم هذ الأشياء وهياها، وتثنون على الله الذي منّ بها، فلهّ تعالى الحمد والشكر والثناء، حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم فوق ما يطلبون، وأعلى ما يتمنون، وآتاهم من كلّ ما سألوه، لا نحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه. ا.هـ (باختصار).

إذاً فمعرفة النعم وتصورها هو السبيل إلى تعظيم الباري وتحقيق عبادة الشكر له سبحانه - وهي من أعظم العبادات - وهي بحمد الله مذكورة ولكنها في ثنايا الكتب منشورة، ولذا رأيت أن من الأهمية جمعها وتصنيفها وتمحيص نصوصها مع التعليق عليها حسب الحاجة خصوصاً إذا كان هذا البيان من كلام الأئمة، كما أنني سلكت نهج عدد من أئمة المحدثين كالبخاري والنووي والذين قاموا بضم الآيات مع الأحاديث والآثار باعتبار أن الكتاب والسنة متلازمان تلازم الجسد الواحد، وفي هذا يقول النبي ﷺ كما في حديث المقدم ابن معدي كرب ؓ: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه..." الحديث، أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والطبراني في الكبير ومسند

• الشاميين والدارقطني والطحاوي في شرح معاني الآثار والبيهقي، وإسناده صحيح^(١).

ويمكن تلخيص المنهج الذي اتبعته في جمع وتخريج وترتيب تلك النصوص والتعليق عليها فيما يلي:

١- جمعت الأحاديث والآثار الواردة في النعم وتقسيمها سواء كانت صريحة أو تدل على ذلك على سبيل الإلماح والإشارة، كل ذلك على سبيل التوسط فتركت المكرر وما يغني عنه غيره حتى لا يطول البحث. واجتهدت في تحقيق ذلك قدر استطاعتي، وبخصوص الآثار فإنني أكتفي منها بقدر الحاجة للاستشهاد والبيان.

٢- ما كان من هذه النصوص في الصحيحين فإنني لا أخرجه من غيرهما - غالباً - إلا لفائدة وحاجة، فإن كان في غيرهما فإنني أحرص على تخريجه من دواوين السنة المشهورة - خصوصاً المتقدمة منها - وأتوسع في ذلك بحسب الحاجة من جمع روايات وألفاظ النص، أو الطرق التي تؤيد ثبوته وتقويه.

٣- أحكم على هذه الأحاديث بالحكم المناسب وأذكر ما تيسر من أحكام الأئمة المحققين حتى يزداد القارئ طمأنينة بالحكم الذي ذكرته، أما الآثار فإنني لا أحكم على شيء منها للخلاف في الاحتجاج بها، وإنما أذكرها من باب الاستشهاد والاستئناس، إلا ما ظهر بطلانه وعدم صحته فإنني لا

(١) أحمد (١٣٠/٤ : ١٧٢١٣)، أبو داود (٢٠٠/٤ : ٤٦٠٤)، ابن ماجه (١٢)، الطبراني (٢٠/

٢٨٣ : ٦٦٩ ، ٦٧٠)، مسند الشاميين (١٣٧/٢ : ١٠٦١)، الدارقطني (٢٨٧/٤ : ٥٩)،

شرح معاني الآثار (٢٠٩/٤)، البيهقي (٣٣٢/٩ : ١٩٢٥٣).

أذكره، وإذا ذكرته فإني أذكره مقروناً بالحكم عليه حتى يعلم درجة ثبوته، وهذا هو منهج جمهور المحدثين وهو عدم العناية بالحكم على الآثار للسبب الذي ذكرته آنفاً.

٤- أبين ما ورد من الألفاظ الغريبة والأماكن والمصطلحات والوقائع.

٥- أعلق على هذه النصوص بما أرى أن يقرب إلى فهم مرادها ودلالاتها حتى تكتمل الفائدة من عرضها وترتيبها.

وقد قسمت بحثي إلى الآتي:

١- المقدمة: ذكرت فيها أهمية الموضوع، وسبب الكتابة فيه، ومنهجي في البحث وعناصره.

٢- الباب الأول: التعم العامة، ويشتمل على الفصول التالية:

الفصل الأول: نعم في الدين، وتشمل:

أ- نعمة صحة المعتقد وسلامته.

ب- نعمة اليسر في أصول الشرع وفروعه.

ج- نعمة مضاعفة الحسنات وتكفير السيئات.

الفصل الثاني: نعم في الكون والحياة، وتشمل:

أ- نعمة الوقت والفراغ.

ب- نعمة تسخير المخلوقات.

الفصل الثالث: نعم على الأمة والبلاد، وتشمل:

أ- نعمة الأمن.

ب- نعمة دفع البلاء والنصر على الأعداء.

ج- نعمة سعة الرزق ورغد العيش.

٣- الباب الثاني: التعم الخاصة، ويشتمل على الفصول التالية:

الفصل الأول: نعم في الدين، وتشمل:

أ- نعمة الإسلام والإيمان والإحسان.

ب- نعمة التوفيق للخير.

الفصل الثاني: نعمة العلم.

الفصل الثالث: نعمة العقل.

الفصل الرابع: نعمة السلامة في البدن.

الفصل الخامس: نعمة وفرة المال ورغد العيش.

الفصل السادس: نعمة الأهل والولد.

الفصل السابع: نعمة السّلامة من الهمّ والغمّ.

٤- الخاتمة: وفيها أبرز النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث.

٥- فهرس المصادر والمراجع .

وأخيراً أسأل الله أن ينفع بهذا العمل وأن يجعله خالصاً لوجهه، وأن يجعله مباركاً أينما كان وذخراً لي يوم القيامة، وأن يوفّقني إلى السداد والرشد في القول والعمل إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباب الأول: النعم العامة :

إنّ المتأمل في نعم الله على خلقه في هذا الكون يجد أن منها ما هو حسّي، وما هو معنوي كالدين والأمن، وتعاقب الليل والنهار، ومنها ما هو في الأنفس، وما هو في الكون والحياة، ومنها ما هو عام لجميع المخلوقات، وما هو خاص بالبشر، أو للمجتمع أو الأسرة بشكل أخص، ومنها ما هو في الدنيا وما هو في الآخرة، إلى غير ذلك من الجوانب والأحوال التي يظهر منها عموم النعم بشكل مطلق، أو بشكل نسبي.

كما أن المتأمل يجد أنها كثيرة جداً يصعب الإشارة إليها فضلاً عن حصرها أو الإحاطة بها، وهي تختلف كثرة وقلة وأهمية، حسب المكان والزمان والحال، وحيث إن اللبيب بالإشارة يفهم، فقد اقتضت على صور محدودة، حرصت أن تكون قريبة ومباشرة _ قدر الإمكان _ لواقعنا في هذه البلاد، كما أنها بارزة وظاهرة لعموم الناس، بل وأهم من ذلك كثرة التأكيد عليها في نصوص القرآن والسنة، وعليه يمكن أن أعرض هذه الصور من خلال الفصول التالية.

الفصل الأول: نعم في الدين، وتشمل:

أ — نعمة صحة المعتقد وسلامته:

لقد كانت جزيرة العرب قبل مبعث النبي ﷺ ساحة يطبق عليها الجهل والشرك، فقد كان حول الكعبة وحدها ثلاثمائة وستون صنماً، ففي الصحيحين والترمذي^(١) عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح وحول الكعبة ستون وثلاثمائة نُصْب، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: "جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد"، وما إن بُعث رسول الله ﷺ حتى بدأ ليل الشرك ينقشع إلى أن أضاء نور الإسلام كل أرجاء الجزيرة ومنها انطلق إلى أصقاع الأرض شرقاً وغرباً، إلا أنه ومع بعد العهد بفجر الإسلام بدأت الوثنية تعود إلى هذه الجزيرة وتفرخ فيها البدع والخرافات، وما بلغت القرن العاشر والحادي عشر الهجري حتى كانت معتمة الجوانب، منتنة بعفن الضلال والجاهلية، يقول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب طيب الله ثراه في رسالة إلى أحد المشايخ في زمانه: فأول ما أنصحك به أنك تفكر هل هذا الشرك الذي عندكم هو الشرك الذي ظهر نبيك محمد ﷺ ينهى عنه أهل مكة، أم شرك أهل مكة نوع آخر أغلظ منه، أم هذا أغلظ؟ - إلى أن قال - وإن كنت تزعم أن الشرك الذي خرج عليه رسول الله ﷺ أكبر من هذا فقل لي. أ.هـ^(٢).

(١) البخاري مع الفتح (١٤/٨: ٤٢٨٣ - كتاب المغازي - باب أين ركن النبي ﷺ الراية يوم الفتح)، ومسلم (١٤٠٨/٣: ١٧٨١ - كتاب الجهاد)، والترمذي (٣٠٣/٥: ٣١٣٨ كتاب التفسير - باب ومن سورة بني إسرائيل).

(٢) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (القسم الخامس "الرسائل الشخصية" ص ٢١٧-٢١٨).

حينئذٍ قام هذا الإمام المجدّد العلم المصلح يدعو الناس إلى إخلاص التوحيد وتصحيح المنهج، وتطهير الدين مما ألصق به من البدع والخرافات كل ذلك بالحجّة والبيان وقام الإمام محمد بن سعود - رحمه الله - يظله ويحميه بالسيف والسنان، حتى زالت ظلمة الشرك والجهل بنور الحق، وعاد للجزيرة صفاءها، ترفرف عليها راية التوحيد، وتهاوت أركان الوثنية وسقطت معالم البدع والخرافات، ونشأ على الفطرة الصحيحة الطفل الصغير، ومات عليها الشيخ الكبير، فأصبح الناس بفضل الله، ثم بتلك الجهود والتضحيات لا يعرفون إلا العقيدة الصحيحة، حيث كانت تدرّس في المساجد للجميع ويطلب منهم حفظ بعض المختصرات فيها كالأصول الثلاثة والمسائل الأربع، حتى كان العامي فيهم في المعتقد خيراً من كثير من العلماء الذين ملأت الشبهات قلوبهم، وإن كانوا يشار إليهم بالبنان، فالعبرة بطمأنينة القلب ويقينه، وهكذا ظلّت هذه الراجة ترفرف على جنبات هذه الجزيرة وستظل بإذن الله إلى ما شاء الله ما دام قادة هذه البلاد - وفقهم الله - يحمون لواءها، ويسعون لنشرها وتمكينها بكل ما أوتوا من إمكانيات، لا بل لم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد شقت هذه العقيدة الصحيحة طريقها إلى أطراف العالم عبر أبناء هذه البلاد، وغير أبنائها ممن درسوا في جامعاتها ومدارسها، وعبر المراكز والمساجد التي أقامتها في أنحاء العالم، وكذلك المعاهد والمدارس المنتشرة شرقاً وغرباً تدرّس المنهج الصحيح، فعَمّ الخير واستوطنت هذه العقيدة الصحيحة بعد أن كانت غريبة، وظهرت هذه النعمة، وعظمت بسببها من الله المنّة، ألم يقل الله سبحانه ممّتنا على صفوة خلقه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾^(١) فأين نحن عن تأمل مثل هذه النعمة،

(١) سورة الضحى، الآية (٧).

ثم الاجتهاد في شكر المنعم عليها، حتى لا تحول ولا تزول، ونسعى للمحافظة عليها وبذل الأسباب لحمايتها، والحق يقال أنه لا يدرك مثل هذه النعمة إلا من زار بعض البلدان والمجتمعات الإسلامية وهي تئن وترزح تحت وطأة البدع والخرافات فالمساجد مقامة على القبور، والأضرحة تزار ويطاف بها كما يطاف بالبيت العتيق شرفه الله، وأهون ذلك بدع الأذكار والصلوات التي تحشر قلبك وتجعلك تترك الصلاة في المساجد، أو تكره الصلاة فيها، بينما لا تجد شيئاً من ذلك عندنا، كما أنك إذا شاهدت ما في تلك البلدان من تحكيم قوانين الطاغوت وانتشار المنكرات وغلبتها عظم في قلبك قدر هذه النعمة التي تتقلب فيها في هذه البلاد، ولا يعني أننا ندعي العصمة والكمال، ولكن بالمقارنة يظهر الفرق وبضدها تمييز الأشياء، وكل ما أخشاه أن يكون بعض الخلل والتقصير الذي عندنا سبباً في النعمة والقنوط، فنغفل عن هذه النعم الكثيرة، ولا نرى إلا هذا النقص، فتضيع عبادة الشكر العظيمة لهذا السبب، والمنهج السليم أن نحمد المولى على ما أولانا من هذه النعم حتى يرحمنا بالمزيد، ونتعاون على تكميل النقص ومعالجة الخلل ممثلين قوله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾^(١) وهذا النبي ﷺ يضع منهجاً لتذكير النفوس بمثل هذه النعم العظيمة، والتي كأنها موجهة لنا نحن أهل هذه البلاد، فقد روى البخاري ومسلم^(٢) عن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس؛

(١) سورة المائدة، الآية (٢).

(٢) البخاري مع الفتح (٤٧/٨: ٤٣٣٠ - كتاب المغازي - باب غزوة الطائف)، ومسلم (٧٣٨/٢):

١٠٦١ - كتاب الزكاة).

في المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: "يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟"، كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنٌ، قال: "ولو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي إلى رحالكم؟، لولا الهجرة لكنت امراً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار، والناس دثار^(١)، إنكم ستلقون بعدي أثرة^(٢)، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض"^(٣).

(١) قال الحافظ في الفتح (٥٢/٨): الشّعار: بكسر المعجمة بعدها مهملة خفيفة: الثوب الذي يلي الجلد من الجسد، والدثار: بكسر المهملة ومثثة خفيفة: الذي فوقه، وهي استعارة لطيفة لفرط قربهم منه، وأراد أيضاً أنهم بطانته وخاصته وأنهم ألصق به وأقرب إليه من غيرهم. وانظر: المعجم الوسيط (١/٢٧١، ٤٨٤).

(٢) الأثرة: الشدة، أو الإنفراد بالشيء المشترك. انظر: الفتح (٥٢/٨).

(٣) يعني حوض الكوثر يوم القيامة.

ب — نعمة اليسر في أصول الشرع وفروعه:

روى الشيخان والنسائي - واللفظ للبخاري - ^(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إن هذا الدين يسرٌ، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة" ^(٢)، وفي رواية للبخاري: "والقصد القصد، تبلغوا"، وفي رواية: "واعلموا أنه لن ينجي أحداً منكم عمله"، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل"، فاليسر أصل في دين الإسلام وسمة بارزة فيه، وخصيصة مهمة من خصائصه العظيمة، ولذا رفع الله عنا الأغلال والآصار التي كانت على من قبلنا، وجاءت أحكام الإسلام والله الحمد مناسبة لحال الناس عموماً، صغيرهم والكبير، غنيهم والفقير، ذكرهم وأنثاهم، وصدق ربنا ومولانا سبحانه القائل: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ

(١) البخاري مع الفتح (١/٩٣: ٣٩) - كتاب الإيمان - باب الدين يسر، ١٠/١٢٧: ٥٦٧٣ - كتاب المرضى - باب تمثي المريض الموت، ١١/٢٩٤: ٦٤٦٣-٦٤٦٧ - كتاب الرقاق - باب القصد والداومة على العمل، ومسلم (٤/٢١٦٩: ٢٨١٦ - كتاب صفات المنافقين)، والنسائي (٨/١٢١) - كتاب الإيمان - باب الدين يسر).

(٢) الغدوة: هو السير أول النهار، والرواح: سير آخر النهار، والإدلاج: سير آخر الليل، أو الليل كله. انظر: فتح الباري (١/٩٥).

مَوْلَانَكُمْ فَبِعَمِّ الْمَوْلَى وَنِعَمِ النَّصِيرِ ﴿١﴾، ولو تأملنا شرائع الدين لرأينا أن اليسر هو طابعه، بل نص الله على ذلك في غير موضع، فقال مثلاً عن الطهارة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢﴾﴾، وفي الصيام يقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣﴾﴾.

إذاً هذا اليسر نعمة نبيه المسلم إلى شكرها، ومع ذلك ترى بعض المسلمين لا يكفون بالغفلة عن هذا الشكر، بل يتجاوز ذلك إلى استئثار تكاليف الإسلام

(١) سورة الحج، الآية (٧٨).

(٢) سورة المائدة، الآية (٦).

(٣) سورة البقرة، الآية (١٨٥).

والتذمُّرُ منها، وما علم المسكين أن الديانات والملل الأخرى فيها من الأغلال
والشدَّة ما لا يظهر إلا عند المقارنة، وكأنه لم يقرأ قوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا
أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا
رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ
مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(١)، قال الله: قد فعلت^(٢)، ولم يقرأ
قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ
فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ
فَاسِقُونَ﴾^(٣) الآية، وكأنه لا يعرف أن الذي جاء بهذا الدين وصفه الله بقوله:
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٤)، وفي الصحيحين وأبي داود^(٥) عن عائشة
رضي الله عنها قالت: "ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٦).

(٢) الحديث أخرجه مسلم (١/١١٦: ١٢٦ - كتاب الإيمان)، والترمذي (٥/٢٢١: ٢٩٩٢ - كتاب
التفسير - باب ومن سورة البقرة).

(٣) سورة الحديد، الآية (٢٧).

(٤) سورة التوبة، الآية (١٢٨).

(٥) البخاري مع الفتح (٦/٥٦٦: ٣٥٦٠ - كتاب المناقب - باب صفة النبي ﷺ)، ومسلم (٤/

١٨١٣: ٢٣٢٧ - كتاب الفضائل)، وأبو داود (٥/١٤٢: ٤٧٨٥ - كتاب الأدب - باب في
التحاوُز في الأمر).

يكن إثماً " بل إنه أوصى أمته بالتيسير على أنفسهم وغيرهم، ففي الصحيحين والمسند^(١) أن النبي ﷺ قال لأبي موسى ومعاذ رضي الله عنهما حين بعثهما إلى اليمن: "يسرّوا ولا تعسّروا، وبشروا ولا تنفروا، وتطاوعا ولا تختلفا"، وفي الصحيحين والسنن^(٢) عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: "اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يملّ حتى تملّوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قلّ"، وفي البخاري^(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما أراد أصحابه أن يوقعوا بالأعرابي الذي بال في المسجد أمرهم أن يدعوه، ويهريقوا على بوله ذنوباً من ماء وقال: "إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين"، وفي الصحيحين والنسائي^(٤) عن أنس رضي الله عنه في قصة الثلاثة الذين سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ فكأنهم تفألوها، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً. فجاء

(١) البخاري مع الفتح (١/١٦٣: ٦٩ - كتاب العلم - باب ما كان النبي ﷺ يتخوّم بالموعظة، ٦٠/٨: ٤٣٤٢ - كتاب المغازي - باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن)، ومسلم (٣/١٣٥٩: ١٧٣٣، ١٧٣٤ - كتاب الجهاد)، والمسند (٤/٤١٧).

(٢) البخاري مع الفتح (١/١٠١: ٤٣ - كتاب الإيمان - باب أحب الدين إلى الله أدومه)، (١١/٢٩٤: ٦٤٦٥ - كتاب الرقاق - باب القصد والمداومة على العمل)، ومسلم (١/٥٤٠: ٧٨٢ - كتاب الصلاة)، وأبي داود (٢/١٠١: ١٣٦٨ - كتاب الصلاة - باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة)، والنسائي (٣/٢١٨ - كتاب صلاة الليل - باب الاختلاف على عائشة في إحياء الليل)، وابن ماجه (٢/١٤١٦: ٤٢٣٨ - كتاب الزهد - باب المداومة على العمل).

(٣) البخاري مع الفتح (١/٣٢٣: ٢٢٠ - كتاب الوضوء - باب صب الماء على البول في المسجد).

(٤) البخاري مع الفتح (٩/١٠٤: ٥٠٦٣ - كتاب النكاح - باب الترغيب في النكاح)، ومسلم (٢/١٠٢٠: ١٤٠١ - كتاب النكاح)، والنسائي (٦/٦٠ - كتاب النكاح - باب النهي عن التبتل).

رسول الله ﷺ فقال: "أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم لله، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" فيا من لا يستشعر هذه النعمة، ولا يتذكر فضل الله عليه، كيف تكون الحال لو كانت الصلوات المفروضة في اليوم خمسين صلاة بدل خمس، كيف لو كانت هذه الصلوات لا تؤدى إلا في أماكن مخصوصة، أو أن النجاسة لا يكفي غسلها من الثوب بل لابد من قصها، والطهارة لابد أن تكون بالماء ولا يغني عنه التيمم، بل وأعظم من ذلك لو كانت التوبة لا تقبل إلا بقتل النفس، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ۖ يَتَقَوَّمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝﴾^(١)، ألا يجب علينا حينئذ أن نعظم الشكر والحمد لله على ما أتم به علينا من دين الإسلام، وحفظه لنا، ويسر أحكامه.

ج — نعمة مضاعفة الحسنات وتكفير السيئات:

روى الشيخان وأحمد والنسائي^(٢) عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غدٍ"، فهذا حديث عظيم

(١) سورة البقرة، الآية (٥٤).

(٢) البخاري مع الفتح (٣٥٤/٢: ٨٧٦ - كتاب الجمعة - باب فرض الجمعة)، ومسلم (٨٥/٢: ٨٥٥ -

- كتاب الجمعة)، والمسند (٢٤٢/٢، ٢٤٩)، والنسائي (٨٥/٣-٨٧ - كتاب الجمعة - باب إيجاب الجمعة).

يوضّح ما أكرمنا الله به من منزلة فاتت من سبقنا من الأمم، فمع كوننا الآخرين زمناً وشريعة، إلا أننا السابقون المقدمون يوم القيامة على الأمم الأخرى، بل ومع كوننا أقصر أعماراً وأصغر أجساماً، حيث كانت أعمارهم بالمئات بل عمر نوح عليه السلام ألف سنة أو تنقص قليلاً، بينما أصبحت أعمارنا كما وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله فيما أخرجه الترمذي وأبو يعلى عن أبي هريرة وأبو يعلى عن أنس بن مالك رضي الله عنهما^(١): "أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلّهم من يجوز ذلك"، وأما الأجسام فقد مرّت بعد تنازلي ودليل ذلك ما رواه الشيخان وأحمد^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خلق الله آدم على صورته، وطوله ستون ذراعاً، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك النفر - وهم نفر من الملائكة جلوس - فاستمع ما يحيونك، فإنه تحيتك وتحية ذريتك، فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله فزادوه "ورحمة الله" فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، في طوله ستون ذراعاً فلم تنزل الخلق تنقص حتى الآن"، هذا النقص الكبير في الأعمار والأجسام كان ولا بد أنه سيؤثر بشكل كبير على مقدار الثواب الذي نكسبه من عبادتنا لولا أن الله عوّضنا عن ذلك أعظم منه، فضاعف لنا الحسنات، وأجزل لنا الأجور على الأعمال اليسيرة، ثم أشرع لنا أبواب تكفير الخطايا بأسباب وأعمال لا تحتاج منّا إلا لوقتٍ وجهدٍ قليل، فله الحمد والشكر كثيراً،

(١) انظر: الترمذي (٥/٥٥٣: ٣٥٥٠ - كتاب الدعوات - باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم)، وأبو يعلى (٥/٢٨٣: ٢٩٠٢، ١٠/٣٩٠: ٥٩٩٠).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/٣٦٢: ٣٣٢٦ - كتاب الأنبياء - باب خلق آدم وذريته)، ومسلم (٤/٢١٨٣: ٢٨٤١ - كتاب الجنة)، والمسند (٢/٣١٥).

عدد ما تساقطت الأمطار وغرّدت الأطيّار وتحركت الأشجار وتعاقب الليل والنهار، بل له الحمد والشكر حتى يرضى، وبعد الرضى، وما شاء من شيء بعد، فهذه الصلاة أعظم الفرائض، أول ما فرضت كانت خمسين، ثم أصبحت خمساً في الأداء، خمسيناً في الجزاء، ففي الصحيحين والترمذي والنسائي^(١) عن أنس رضي الله عنه في حديث الإسراء والمعراج الطويل، وفيه أن النبي صلى الله عليه وآله قال: "عهد إليّ — أي الله — خمسين صلاة كل يومٍ وليلة — فلم يزل يراجع ربه طالباً التخفيف حتى بلغت خمساً وعندها قال صلى الله عليه وآله: يا ربّ، إن أمّتي ضعفاء، أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم، فخفّف عَنَّا، فقال الجبار: يا محمد، قال: لبيك وسعديك، قال: لا يبدّل القول لديّ، كما فرضت عليك في أمّ الكتاب، فكل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أمّ الكتاب، وهي خمس عليك"، وفي لفظ "فخفّف عن عبادي، وأجزى بالحسنة عشراً"، وفي رواية لمسلم: "إنّ خمس صلوات كلّ يومٍ وليلة، بكل صلاة عشرٌ فذلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت عشراً، ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة"، وأعظم من هذا ما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه^(٢) عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: "صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام،

(١) البخاري مع الفتح (٤٧٨/١٣: ٧٥١٧ - كتاب التوحيد - باب ما جاء في قوله صلى الله عليه وآله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾)، ومسلم (١٤٥/١: ١٦٢ - كتاب الإيمان)، والنسائي (٢٢١/١ - كتاب الصلاة - باب فرض الصلاة)، والترمذي (٣٠٠/٥: ٣١٣٠ - كتاب التفسير - باب ومن سورة بني إسرائيل).

(٢) المسند (٣٤٣/٣)، وابن ماجه (٤٥٠/١: ١٤٠٦ - كتاب إقامة الصلاة - باب ما جاء في فضل الصلاة في المسجد الحرام...) وإسناده صحيح.

وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه"، وصدر الحديث أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما^(١) وأعظم من هذا جميعاً أن الله قال عن ليلة القدر: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾^(٢) وأخرج أبو داود وصححه ابن حبان والحاكم^(٣) عن أبي سعيد رضي الله عنه - وإسناده حسن - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من قال: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وجبت له الجنة"، وحينئذ ندرك أحد الأسرار في كوننا سبقنا بالحسنات من قبلنا، مع أنهم أقوى أجساماً وأطول أعماراً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ولكن أكثر الناس لا يشكرون، ويزداد العجب، ويعظم فضل الله علينا إذا عرفنا الأسباب التي تُهدم بها السيئات، وتغسل بها الخطايا، ومنها أسباب يسيرة جداً لا تكلف من الوقت والجهد إلا أقله، فقد روى الشيخان وأهل السنن^(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: "من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه"، وفي

(١) انظر: البخاري مع الفتح (٦٣/٣): ١١٩٠ - كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، ومسلم (١٠١٢/٢-١٠١٤: ١٣٩٤، ١٣٩٥ - كتاب الحج).

(٢) سورة القدر، الآية (٣).

(٣) أبو داود (١٨٤/٢): ١٥٢٩ - كتاب الصلاة - باب في الاستغفار، والإحسان (١٤٤/٣): ٨٦٣ - كتاب الرقاق - باب الأذكار، والحاكم (٥١٨/١)، ووافقه الذهبي على تصحيحه.

(٤) البخاري مع الفتح (٢٥٠/٤): ٢٠٠٩ - كتاب صلاة التراويح - باب فضل من قام رمضان، ومسلم (٥٢٣/١): ٧٥٩ - كتاب صلاة المسافرين، وأبو داود (١٠٢/٢): ١٣٧١، ١٣٧٢ - كتاب الصلاة - باب تفرغ أبواب شهر رمضان، والترمذي (١٧١/٣): ٨٠٨ - كتاب الصوم - باب الترغيب في قيام رمضان، والنسائي (١٥٥/٤) - كتاب الصيام - باب ثواب من قام رمضان.

الصحيحين^(١) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "من قال سبحان الله وبحمده في يومٍ مائة مرة حطت خطاياهُ وإن كانت مثل زبد البحر" ولعلنا نتذكر سيد الاستغفار الذي يقول عنه النبي ﷺ: "من قاله حين يصبح وحين يمسي فمات من يومه دخل الجنة"^(٢)، فحري بنا أن نعظم لله الشكر حيث أوسع علينا من فضله، ووهبنا من أسباب الرفعة والكرامة ما ميزنا به عن غيرنا، فقد رأى وهيبٌ قوماً يضحكون يوم الفطر فقال: إن كان هؤلاء تقبل منهم، فما هذا فعل الشاكرين، وإن كان لم يتقبل منهم فما هذا فعل الخائفين^(٣).

(١) البخاري مع الفتح (٢٠٦/١١: ٦٤٠٥ - كتاب الدعوات - باب فضل التسبيح)، ومسلم (٤/ ٢٠٧١: ٢٦٩١ - كتاب الذكر)، والترمذي (٥١١/٥: ٣٤٦٦ - كتاب الدعوات - باب "٦١")، والموطأ (٢٠٩/١ - كتاب في القرآن - باب في ذكر الله تبارك وتعالى).

(٢) أخرجه البخاري (البخاري مع الفتح ٩٧/١١: ٦٣٠٦ - كتاب الدعوات - باب لكل نبي دعوة مستجابة)، والترمذي (٤٦٧/٥: ٣٣٩٣ - كتاب الدعوات - باب "١٥")، والنسائي (٢٧٩/٨ - كتاب الاستعاذة - الاستعاذة من شر ما صنع).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٧٧: ٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٦/٣)، وهيب هذا هو ابن الورد المكي رحمه الله (ت ١٥٣هـ) وقد أورد المزي هذا الأثر في تهذيب الكمال (١٤٨٤/٣).

الفصل الثاني: نعم في الكون والحياة، وتشمل:

أ - نعمة الوقت والفراغ:

يشبه أن يكون جرى الاتفاق بين أمم الأرض، الأولين والآخرين، على اختلاف نحلهم ومشاربهم أن الوقت من أثنى ما أوتي الإنسان، بل إنه عند جمهور الكفار لا يوجد أغلى منه إلا الروح التي يحملها الإنسان بين جنبيه، وما ذلك إلا لأنه أمر جاءت به الفطرة، ولذا نجد سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه يقرر هذه الحقيقة فيما أخرجه الشيخان وأحمد والترمذي وابن ماجه^(١) واللفظ لغير البخاري عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: "يهرم ابن آدم ويشب فيه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر"، إلا أن المشكل حقاً أن نسبة ليست قليلة لا تشعر بقيمة هذه النعمة، مما يترتب عليه إهدار هذه النعمة وتضييعها، ناهيك عن الغفلة عن شكر المولى عليها، ولو تأملنا قليلاً لرأينا أن كل شيء في هذه الحياة يمكن تعويضه إذا فات إلا الوقت فإن ما مضى منه لا يعود، ولذا نبّه النبي ﷺ إلى الخسارة العظيمة التي تقع لبعض الناس مع هذه التجارة الكبيرة، ففي البخاري والترمذي وابن ماجه^(٢) عن ابن عباس رضي الله

(١) البخاري مع الفتح (١١/٢٣٩: ٤٦٢١) - كتاب الرقاق - باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه، ومسلم (٢/٧٢٤: ١٤٠٧ - كتاب الزكاة)، والمسند (٣/١١٥-١١٩)، والترمذي (٤/٥٧: ٢٣٣٩) - كتاب الزهد - باب ما جاء في قلب الشيخ شاب على حب اثنتين، وابن ماجه (٢/١٤١٤: ٤٢٣٤) - كتاب الزهد - باب الأمل والأجل).

(٢) البخاري مع الفتح (١١/٢٢٩: ٦٤١٢) - كتاب الرقاق - باب في الرقاق، والترمذي (٤/٥٥٠: ٢٣٠٤) - كتاب الزهد - الباب الأول، وابن ماجه (٢/١٣٩٦: ٤١٧٠) - كتاب الزهد - باب الحكمة).

عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ"، قال ابن العربي - رحمه الله -^(١): اختلف في أول نعمة، فقيل: الحياة، وقيل: هي الصحة، وقيل: هي الإيمان، والأمثل من جملة الأقوال أن أول نعمة هي الإيمان فإنه نعمة مطلقة فإن الحياة والصحة إذا لم يقرن بهما الإيمان كانت نقمة. وذكر ابن بطل^(٢) أن معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكفياً، صحيح البدن، فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يغبن بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه، فمن فرط في ذلك فهو المغبون.

وقال الحافظ ابن حجر^(٣): أشار بقوله "كثير من الناس" إلى أن الذي يوفق لذلك قليل.

قال ابن الجوزي^(٤): قد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم، ولو لم يكن إلا الهرم، كما قيل^(٥):

(١) عارضة الأخوذي (١٨١/٩).

(٢) انظر: شرح البخاري لابن بطل (١٤٦/١٠) وقد نقل الحافظ كلامه في الفتح لكن بتصرف.

انظر: الفتح (٢٣٠/١١).

(٣) الفتح (٢٣٠/١١).

(٤) الفتح (٢٣٠/١١).

(٥) الفتح (٢٣٠/١١).

يسر الفتى طول السلامة والبقا فكيف ترى طول السلامة يفعل

يُرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء إذا رام القيام ويحمل

قال ابن رجب رحمه الله^(١): كتب بعض السلف إلى أخ له: يا أخي يُخَيَّل إليك أنك مقيم، بل أنت دائب السير، تساق مع ذلك سوقاً حثيثاً، الموت متوجه إليك والدنيا تطوى من ورائك، وما مضى من عمرك فليس بكارٍ عليك يوم التغابن، وقال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، كيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله، وتقوده حياته إلى موته، وقال آخر: من كانت الأيام والليالي مطاياها سارت به وإن لم يسر، ولذا قال الشاعر:

وما هذه الأيام إلا مراحل
وأعجب شيء لو تأملت أنها
يحثُّ بها داع إلى الموت قاصد
منازل تطوى والمسافر قاعد
وقال آخر:

نسير إلى الآجال في كل لحظة
ولم أر مثل الموت حقاً كأنه
وأيامنا تطوى وهن مراحل
إذا ما تخطته الأمانى باطل
وما أقبح التفریط في زمن الصبا
فكيف به والشيب للرأس شاعل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى
فعمرك أيام وهن قلائل

إن من شكر الله على نعمة الفراغ استماره فيما ينفع، لأن من الناس من تذهب عليه الأيام والشهور بلا ثمن يرتجى في الدنيا ولا الآخرة، أما الدقائق وما دونها فليست أصلاً في حساباته.

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٣٣٤-٣٣٥) باختصار يسر وتصرف، وانظر أيضاً مدارج السالكين (٣/٢٠٠-٢٠١).

إن هذا الوقت ليس ملكاً للإنسان حتى يسعى لقتله بأي شكل حتى وإن كان بالنوم الزائد عن حاجة الإنسان فقد قال بعض السلف: من أكل كثيراً شرب كثيراً، فنام كثيراً، فحسر كثيراً. بل الوقت حقيقة ملك لله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، وفي الترمذي^(٢) عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه". الحديث، فحري بمن لم يُشغَل وقته بشاغل من مرض أو بلاء أو هم أن يصرفه فيما يعود عليه بالنفع العاجل والآجل حتى لا يندم على التضييع وقت لا ينفع الندم كما قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتُنِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾^(٣) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ^(٤) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ^(٥) ﴿٣﴾.

(١) سورة الأنعام، الآية (١٦٢).

(٢) الترمذي (٦١٢/٤ : ٢٤١٧ - كتاب القيامة - الباب الأول)، وقال الترمذي: حسن صحيح، ووافقه الأرناؤوط في تعليقه على جامع الأصول (٤٣٦/١٠) وهو كذلك، وله شاهد من حديث ابن مسعود وأبي سعيد رضي الله عنهما، أخرج حديث الترمذي حديث ابن مسعود (٦١٢/٤ : ٢٤١٦ - كتاب صفة القيامة - الباب الأول) وأشار للثاني، وكذا صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير (١٢٢١/٢ : ٧٣٠٠).

(٣) سورة الزمر، الآية (٥٦-٥٨).

ب — نعمة تسخير المخلوقات:

لقد اقتضت حكمة الله البالغة لما خلق بني آدم أن يخلق لهم في هذا الكون أرضه وسماواته وما بينهما ما تقوم به حياتهم من الكائنات وتكمل سعادتهم، فظهر بها فضل الله على عباده، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(١)، قال الشوكاني - رحمه الله -^(٢): هذا إجمال لذكر النعمة التي أنعم الله بها على بني آدم، أي كرمناهم جميعاً، وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة، وتخصيصهم بما خصهم الله به من المطاعم والمشارب والملابس، على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوانات مثله، ونقل عن ابن جرير - رحمه الله - قوله^(٣): أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم. ا. هـ.

ولذا قال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٤) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكُرُونَ^(٥)، وقال أيضاً في سورة الزخرف ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ

(١) سورة الإسراء، الآية (٧٠).

(٢) فتح القدير (٢٤٤/٣).

(٣) وانظر: جامع البيان (١٢٥/١٥).

(٤) سورة الجاثية، الآيات (١٢-١٣).

خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ ﴿٣﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٤﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٥﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿٦﴾ ﴿١﴾، ولقد امتنَّ الله على عباده إجمالاً بما سخَّره لهم من المخلوقات في السماء والأرض، وجعل ذلك من سابغ نعمه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ ﴿٢﴾، فحري بكل مسلم أن يتأمل هذه النعم التي تحيط به في هذا الكون ويسبح فيها، ليدرك عظيم فضل الله علينا، فلا تكاد ترى مخلوقاً من هذه المخلوقات إلا وهو مسخَّر لك بوجه من الوجوه، حتى هذه الحشرات التي يتقرز منها الإنسان أحياناً، ويسعى لقتلها والتخلُّص منها، يظهر لك - إذا تفكَّرت في حالها - حكم بالغة لله سبحانه، فمنها: ما يستخرج منه أهم الأدوية ومنها ما يساعدك للتخلُّص من بعض الأوبئة والجراثيم، ولو لم يكن فيها إلا أنها آيات عظيمة للخالق الحكيم،

(١) سورة الزخرف، الآيات (٩-١٤).

(٢) سورة لقمان، الآية (٢٠).

يَسْلُطُهَا عَلَى بَعْضِ عِبَادِهِ الْعَاقِينَ، كَمَا قَالَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ^(١)، فیرتدع غیرهم عن مخالفة أمر الله، فكانها
جنود مسيرة في هذا الكون تنتظر أمر خالقها لتنفيذ عقوبته فوراً في المتمردين
عن شرعه، وحتى يبين الله ضعف هذا الإنسان الطاغى المتجبر أمام جنود الله
التي تملأ السماوات والأرض، يقول سبحانه مخاطباً إيانا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ
ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ؕ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ
يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ؕ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ
ضَعْفَ الطَّلَبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ ^(٢).

الله أكبر، هذا مع الذباب فكيف لو سلط علينا الحيات والأسود، بل
والنُسُور التي تنقض علينا من السماء في أي لحظة، فقد ذكر ابن كثير - رحمه
الله - في البداية والنهاية ^(٣): أنه سلط على أهل بغداد في إحدى السنوات عقارب
تطير فلقى الناس بسبب ذلك بلاءً عظيماً. وأهم من ذلك أنك إذا تدبرت حال
هذه الحشرات التي يدوسها الناس بأقدامهم، ويرمون بها في أفقر المواضع، عظم
في عينك إفضال الله عليك وعرفت أنك تحتاج إلى شكر الواهب سبحانه بقدر
هذه النعم، تصور نفسك حشرة من هذه الحشرات ولاحظ الفرق، فهل يليق

(١) سورة الأعراف، الآية (١٣٣).

(٢) سورة الحج، الآية (٧٣).

(٣) (٢٠٠/١٢).

بمن يرفل في هذه النعم، وقد سُخِّرَتْ له آلاف المخلوقات في الأرض
والسماوات، أن يبارز المنعم الكريم بقبائح الذنوب، من فعل المنهيات وترك
المأمورات.

يقول ابن قدامة المقدسي - رحمه الله -^(١): انظر إلى الماء الذي تحتاج إليه
هذه الزراعة كيف خلقه الله تعالى، فحَرَّ العيون، وأجرى منها الأنهار، ولما كان
بعض الأرض مرتفعاً لا يناله الماء أرسل إليه الغيوم وسلَّط عليها الرياح، لتسوقها
بإذنه إلى أقطار العالم، وهي سحب ثقالة، ثم يرسله على الأرض مدراراً في
وقت الحاجة.

وانظر كيف خلق الله الجبال حافظة للماء، تتفجر منها العيون تدريجاً، فلو
خرجت دفعة واحدة لغرقت البلاد وهلك الزرع وغيره.

وانظر كيف سخر الشمس وخلقها، مع بعدها عن الأرض، مسخنة لها
في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة إليه، والحر عن الحاجة إليه.

وخلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب، كما جعل من خاصية الشمس
التسخين، فهو ينضج الفواكه بتقدير الحكيم الخبير، وكل كوكب خلق في
السماء فهو مسخَّر لنوع فائدة، كما سخرت الشمس والقمر، ولا يخلو كل
واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها.

ولما كانت كل الأطعمة لا توجد في مكان، سخر الله تعالى التجار،
وسلَّط عليهم الحرص على جمع المال، مع أنه لا يغنيهم في غالب الأمر شيئاً، بل
يجمعون الأموال، فإما أن تغرق بها السفن أو تنتهبها قطاع الطرق، أو يموتون

(١) انظر: مختصر منهاج القاصدين (ص ٢٨٧).

في بعض البلاد فتأخذها السلاطين، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم، وهم أشدُّ أعدائهم لو عرفوا.

فانظر كيف سلَّط الله عليهم الأمل والغفلة، حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح في ركوب البحار وركوب الأخطار، فيحملوا الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك. ا. هـ (باختصار يسير).

إذا كان مولانا يذكرنا الشكر على نعمة واحدة مما سخَّره لنا من هذه المخلوقات، فكيف بما نصبح ونمسي عليه، وكأننا حصَّلنا عليه بحولنا وطولنا، يقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَنَّعُ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾^(١).

إن ما ذكره الله في كتابه من امتنانه وتفضله على عبيد كرمين من عباده وهما داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام وتذكيرهما بالشكر على ذلك حيث يقول سبحانه: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٤﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴿٧٥﴾ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴿٧٦﴾ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٧﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴿٧٨﴾ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ

(١) سورة يس، الآيات (٧١-٧٣).

الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا^١ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٢٨﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوُصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ^٢ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٢٩﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ^٣ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ^٤ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ^٥ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ^٦﴾^(٢) هذا الذي ذكره الله عنهما أعظم دليل على أهمية شكر الله، فإذا كان هذا هو الواجب على الأنبياء وهم المعصومون من الذنوب أكمل الخلق عبودية لله، فإن غيرهم من سائر الناس من باب أولى، بيد أن التأمل في أسباب غفلتنا عن شكر الله على هذه الآلاء العظيمة يجد أنه مع استيلاء الشيطان وصدّه لنا عن هذه العبادة الجليلة، هناك سبب مهم وهو أن الإنسان غالباً لا يستشعر إلا أثر النعمة الخاصة به دون غيره، وهذا ورثي غاية الجهل بمقام هذه النعم، إذ قد تكون حاجته إلى هذه النعم العامة وأثرها عليه أكبر من النعم الخاصة، ولذا جاء النص عليها في القرآن والسنة أكثر.

تدبر معي أخي المسلم نعمة واحدة وهي نعمة الماء الذي هو أصل بقاء كل حي، تتمتع به يومياً ولا تعرف لله قدره، وظنيّ بك أنك لو فقدته أياماً محدودة لأدركت مكانته، واقرأ قوله سبحانه في كتابه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿١٦﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿١٧﴾ لَوْ نَشَاءُ

(١) سورة الأنبياء، الآيات (٧٨-٨٢).

(٢) سورة النمل، الآية (٤٠).

جَعَلَتْهُ أَجَا جًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٥٧﴾^(١)، بل تأمل معي نعمة تنفيها طيلة حياتنا، لا تنقطع عنا لحظة واحدة، وليس لنا في وصولها إلينا أيُّ دورٍ، وهي استنشاق الأكسجين الذي يحيط بنا، وتعاقب الليل والنهار وحسبك بها نعمة، حيث يصفها ربنا بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ ﴿٥٨﴾^(٢)، بل يوضِّح أهمية هذه النعمة على حياتنا وهنأنا فيقول تعالى في سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلٍ تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَيْلٍ تَبْصُرُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٦١﴾^(٣)، يقول العلامة ابن سعدي^(٤) - قدس الله روحه -: هذا امتنان من الله على عباده يدعوهم إلى شكره، والقيام بعبوديته وحقه، أن جعل لهم من رحمته النهار ليتغوا من فضل الله، وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعاشهم في ضيائه، والليل ليهدؤوا فيه ويسكنوا وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرُّف في النهار، فهذا من فضله ورحمته بعباده، فهل أحدٌ

(١) سورة الواقعة، الآيات (٦٨-٧٠).

(٢) سورة الفرقان، الآية (٦٢).

(٣) سورة القصص، الآيات (٧١-٧٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٣).

يقدر على شيء من ذلك؟ وفي هذه الآيات تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبّر نعم الله عليه، ويستبصر فيها، ويقسها بحال عدمها، فإنه إذا وزن بين حالة وجودها وبين حالة عدمها، تنبّه عقله لموضع المنّة، بخلاف من جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمراً ولا يزال، وعمي قلبه عن الثناء على الله بنعمه، ورؤية افتقاره إليها في كل وقت، فإن هذا لا يحدث له فكرة شكر ولا ذكر. اهـ كلامه رحمه الله.

ولذا يؤكد الله سبحانه على هذه النعمة وشكرها بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (١).

إنك أخي المسلم جزء من هذا العالم الذي يكتسي بهذه النعمة، وبها تعظم عليك بين يدي الله الحجة، فهل شاكرٌ منّا من يهجر فرائض الله في النهار، ويسهر على معصية الله؟ يظن أن الله وهبه هذه النعم وسيلة لتحقيق شهواته التي تجلب غضب الله عليه، والله إن البهيمة العجماء لتسبح الله على ما آتاها من نعمة ولكن لا تفقهون تسبيحهم، وحذار أن يكون حالك كمن وصفهم الرسول ﷺ بقوله فيما أخرجه ابن حبان في صحيحه والبيهقي (٢) بسند صحيح

(١) سورة غافر، الآية (٦١).

(٢) صحيح ابن حبان (الموارد ٤٨٥: ١٩٧٥ - كتاب الأدب - باب ماجاء في الفحش)، والبيهقي (١٠/١٩٤ - كتاب الشهادات - باب بيان مكارم الأخلاق).

عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: "إن الله ييغض كل جعظري جَوَّاط سخاب"^(١) في
الأسواق، جيفة بالليل، حمارٍ بالنهار، عالمٌ بأمر الدنيا جاهلٌ بأمر الآخرة."

ر (١) الجعظري: اللفظ الغليظ المتكبر، والجواط: الضخم المختال، والكثير الكلام، والجموع المتنوع،
والسحاب: كثير الصباح.
انظر: النهاية (١/٢٧٦ ، ٢/٢٤٩)، وترتيب القاموس (١/٥٥٨).

الفصل الثالث: نعم على الأمة والبلاد، وتشمل:

أ — نعمة الأمن:

إن من النعم التي تتم بها سعادة المجتمع، ويكمل هناء الفرد بها، نعمة الأمن والاستقرار والطمأنينة، لأنها تالله أعظم النعم الدنيوية التي أوتيها الإنسان، فهي في كثير من الأحيان تفوق صحة الأبدان، ناهيك عن وفرة الطعام والشراب، وربما اشتغل الذهن بها عن الأعراض والأموال، روى البخاري في الأدب المفرد والترمذي وقال: حسن غريب، وابن ماجه والحميدي وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني - واللفظ له - والخطيب في تاريخه عن عبيد الله بن محصن الأنصاري رضي الله عنه مرفوعاً: "من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده طعام يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها"، لكن في إسناده سلمة بن عبيد الله بن محصن وهو مجهول كما في التقريب (٢٤٧: ٢٤٩٩) وقال العجلي (١٤٦/٢: ٦٤١): لا يتابع على حديثه، وله شاهد آخر من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في مسند الشهاب وصححه ابن حبان عن أبي الدرداء رضي الله عنه ^(١) لكن في إسناده عبد الله بن هانئ بن أبي عبله ومع كون ابن حبان ذكره في الثقات (٣٥٧/٨) فهو متهم بالكذب كما في لسان الميزان (٣/٣٧٠)، ولذا حين وصف الله أهوال يوم القيامة والخوف والرعب الذي ملأ القلوب، قال سبحانه: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٢) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ

(١) فضل الله الصمد (١/٤٠٠: ٣٠٠ - باب من أصبح آمناً في سربه)، والترمذي (٤/٥٧٤: ٢٣٤٦ -

كتاب الزهد - باب "٣٤")، وابن ماجه (٢/١٣٨٧: ٤١٤١ - كتاب الزهد - باب القناعة)،

والحميدي (١/٢٠٨: ٤٣٩)، والآحاد والمثاني (٤/١٤٦: ٢١٢٦)، =

كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمَلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿١﴾، كما أن هناك مثلاً آخر حاضراً ومحسوساً، وهو الحال البائسة والمفجعة التي عاشها مئات الآلاف من اللاجئين بين بورندي ورواندا البلدين الإفريقيين، والتي تعتبر بحقّ من مآسي العصر الحاضر، حيث رأينا تلك الأمواج البشرية تلهث يميناً وشمالاً لا تدري أين تذهب، فهول الموقف قد حير الأذهان، واشتغلت به عمّا سواه، فالأمراض الفتاكة تبتلع منهم يومياً، والجوع قد أوهن العظام والأجسام فتساقطت على جنبات الطرق وفي الحفر وبين الأشجار لا يلوي عليهم أحد، قد شغل كلٌّ بنفسه، همُّهم الأول والأخير هو الأمن والاستقرار والطمأنينة.

إن نعمة الأمن والاستقرار التي تنقلب فيها ليل نهار، كساءً ووطاءً لا يعرف قدره إلا من فقده وتلظى بنار الخوف والقلق، ولذا امتنَّ الله على عباده بهذا الفضل العظيم. وحسبك بعلوِّ مقامه وسموِّ مكانه أن امتنَّ الباري الكريم به، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٢﴾، وفي سورة الأنفال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَفَاوَنَّاكُمْ

= وتاريخ بغداد (٤٦٣/٣)، وابن حبان (٤٤٥/٢ : ٦٧١ - كتاب الرقاق - باب الفقر والزهة والقناعة)، ومسند الشهاب (٣١٩-٣٢٠ : ٥٣٩ ، ٥٤١)، ومجمع الروائد (٢٨٩/١٠) وضعفه بعلي بن عباس.

(١) سورة الحج، الآيات (١-٢).

(٢) سورة الأعراف، الآية (١٠).

وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ - وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ ﴿١﴾، وقال سبحانه مذكراً أهل البلد الحرام من قريش وغيرها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَفَتُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ﴿٢﴾، وقال أيضاً: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٢٨﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٢٩﴾﴾ ﴿٣﴾، قال قتادة - رحمه الله - عن قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ﴾ قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاء عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعره جلوداً، وأبينه ضللاً، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشراً منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكّن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله ﴿٤﴾.

إن أثر الأمن لا يقتصر على الجوانب الدنيوية فحسب، بل يتعداها إلى العبادات، فأثى لنفس غير مطمئنة أن تؤدي العبادة، والطاعة، وهي قد فقدت الاستقرار والتركيز، وأعظم عبادة يؤديها المسلم هي الصلاة، ومع ذلك شرع لحالة الخوف صلاة تناسبه في صفتها، أليس ذلك أعظم دليل على أثر الخوف

(١) سورة الأنفال، الآية (٢٦).

(٢) سورة العنكبوت، الآية (٦٧).

(٣) سورة قريش، الآيات (٣-٤).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣٠٠/٢).

على العابد قال سبحانه: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (١) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ (١)، وقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي اتَّخَذُوا فَتُنَادُوا بِهِ نَادِيًا وَسَوَاءٌ أَعْمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا يَسْتَخْلِفَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢)، ولذا نجد أن هذا الأمر ظاهر في خطاب الخليل لربه سبحانه حين يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٣)، فالعبادة الصحيحة وإظهار شعائر الله لا يتحقق إلا في ظل الأمن والاستقرار، فإذا اختل هذا الجانب عمَّت الفوضى وأتت على الأخضر واليابس، وتساقطت أسباب السعادة والهناء، واستبيحت الأموال وانتهكت الأعراض، وابتلي الناس في دينهم، فهنيئاً لمن بات آمناً في سربه، معافى في دينه وبدنه، فلكامناً حيزت له الدنيا بخذاً فبرها، أخرج ابن أبي شيبة عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه كان يقول: اللهم إني أسألك الأمن والإيمان والصبر والشكر والغنى والعفاف (٤)، وبهذا

(١) سورة البقرة، الآيات (٢٣٨-٢٣٩).

(٢) سورة النور، الآية (٥٥).

(٣) سورة إبراهيم، الآية (٣٥).

(٤) المصنف (٢٥/٦) - كتاب الدعاء - الباب السابع: من يدعو بالغنى وفيه راوٍ مبهم.

نشعر أي نعمة نحن فيها وننتبه أن أقوى حراسة لها من الضياع، وأوثق قيد لها من التفلّت هو الشكر للمنعم سبحانه، بالفعل قبل القول، ولنعلم ونتيقن أن أعظم سبب لرحيلها وزوالها هو الكفر بالله، ومبارزته بالعقوق والمعاصي، وتذكروا معي قوله سبحانه في سورة النحل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾^(١)، فلا بد أن يكون المجتمع المسلم كله يداً واحدة في وجه أي عدوٍّ خارجي أو داخلي يريد الإخلال بأمنه وتعكير صفو حياته، والأخذ على يده، لأن هناك من مرضى النفوس من هم كالجرائيم والبراغيث لا تعيش ولا تظهر إلا في الأجواء المتعكّرة والمياه الفاسدة، نسأل الله أن يشملنا برحمته وأن يحيطنا بعنايته وأن يحفظ علينا إيماننا وأمننا ويتم علينا سعادة الدارين إنه سميع مجيب.

ب — نعمة دفع البلاء والنصر على الأعداء:

إن المسلم قد لا يستشعر فضل الله عليه إلا بقدر ما يحصل له من النعم، بينما يغفل كثيراً عما يدفعه الله من النقم، وربما كانت مصلحته في السلامة منها أكثر من جلب المصالح التي يتمناها، وبهذه المناسبة لعلنا نتذكر ما أخرجه الترمذي -

(١) سورة النحل، الآيات (١١٢ - ١١٤).

وأصله في الصحيحين - (١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: " ما من رجل يدعو الله بدعاء إلا استجيب له، فإما أن يعجل له في الدنيا، وإما أن يدخر له في الآخرة، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا، ما لم يدع ياثم أو قطيعة رحم، أو يستعجل "، قالوا: يارسول الله، وكيف يستعجل؟، قال: يقول: " دعوت ربي فما استجاب لي "، وفي المسند والأدب المفرد، ومسند عبد الحميد وصححه الحاكم (٢)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: " ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها "، وأخرج الترمذي أيضاً والإمام أحمد (٣) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه رفعه " ما على الأرض مسلم يدعو بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها "، فلاحظ كيف أن صرف السوء ودفع البلاء لا يقل عن جلب المنفعة، والله الحكمة البالغة، وهو أعلم بمصالح عباده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولذا امتنَّ الله على عباده بهذه النعمة فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ (١) سورة النحل: ١٠٤، وانظر: البخاري مع الفتح (١١) / ١٤٠: ٦٣٤٠ - كتاب الدعوات - باب يستجاب للعبد ما لم يعجل، ومسلم (٤/ ٢٠٩٥: ٢٧٣٥ - كتاب الذكر والدعاء).

(١) الترمذي (٣٦٠٢، ٣٦٠٣ - كتاب الدعوات - باب "١٤٥")، وانظر: البخاري مع الفتح (١١) / ١٤٠: ٦٣٤٠ - كتاب الدعوات - باب يستجاب للعبد ما لم يعجل، ومسلم (٤/ ٢٠٩٥: ٢٧٣٥ - كتاب الذكر والدعاء).

(٢) المسند (١٨/٣) فضل الله الصمد (٢٤٨: ٧١٠)، والمختب (٢٩٢: ٩٣٧)، والمستدرك (١) / ٤٩٣، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي على صحته فقط.

(٣) الترمذي (٣/ ٥٦٦: ٣٥٧٣ - كتاب الدعوات - باب في انتظار الفرج)، والمسند (٥/ ٣٢٩)، قال الترمذي: حسن صحيح، وهو كذلك إن شاء الله تعالى، فإن رجاله ثقات عدا ابن ثوبان فإنه صدوق يخطئ لكن يشهد له حديث أبي سعيد الأنفي.

فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ^ط وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾^(١)،
 وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ
 أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
 لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾^(٢)، قال بكر بن عبد الله المزني - رحمه الله -: ^(٣) “
 ينزل بالعبد الأمر فيدعو الله ﷻ ، فيصرفه عنه، فيأتيه الشيطان فيضعف
 شكره، يقول: إن الأمر كان أيسر مما تذهب إليه، قال: أولا يقول العبد:
 كان الأمر أشد مما أذهب إليه، ولكن الله ﷻ صرفه عني ” ، وقال حبيب بن
 عبيد الحمصي - رحمه الله -: ^(٤) “ ما ابتلى الله عبداً ببلاء إلا كان لله عليه فيه نعمة
 ألا يكون ابتلاه بأشد منه، وقال شريح - رحمه الله -: ^(٥) “ ما أصيب عبداً بمصيبة
 إلا كان لله ﷻ فيها ثلاث نعم: ألا تكون كانت في دينه وألا تكون أعظم مما
 كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت.

أخي المسلم: إنك لو تأملت واقع كثير من الناس حولك، وما تسمعه عنهم
 لعلمت يقيناً أنك تتقلب في نعمة عظيمة لا تقبل لها عوضاً إلا ما هو أفضل
 منها، وتبتهل إلى الله بعظيم الشكر والحمد على ما أنت عليه، وإن فاتك من
 أمانيك وآمالك ما فاتك، ويكفيك أن تتذكر المصائب والبلايا في الدين والعقل

(١) سورة المائدة، الآية (١١).

(٢) سورة الأنفال، الآية (٢٦).

(٣) انظر: الشكر (٧٦: ٢٦).

(٤) انظر: الشكر (١٣١: ١٢٨).

(٥) انظر: الشكر (١٠٣: ٧٩).

والجسد والأهل والمال التي عادة ما تنزل بآبِن آدَمَ، وكيف أن الله دفعها عنك وسَلَّمَك منها، ولو أنَّها مَسَّتْكَ لكدرت عيشك وقلبت حياتك شقاءً.

إن حياتك في الملذات والهناء عشرات السنوات لا تعادل بؤس ساعة، يؤكّد ما أقول ما أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجه^(١) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يُؤْتِي بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَصْبَغُ فِي جَهَنَّمَ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟" فيقول: لا والله ياربُّ "الحديث.

كم هو عظيم هذا الأمن الذي نتفياً ظلاله، قد كفانا الله شرَّ الأعداء القريبين والبعيدين، بل حتى من يعيشون بيننا، قد ألقى الله في قلوبهم الرعب والذل، أو سلَّط بعضهم على بعض، أو أحبط خططهم وأبطل كيدهم وردَّه في نحورهم، وما كنَّا أهلاً للقائهم في العدد والعدَّة، ولكن الله تولَّانا بفضله، واكتنفا بنصره وتأييده، يقول سبحانه مبيناً ضرباً من ضروب نصره وحفظه لأوليائه وهو الذي له جنود السماوات والأرض: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝﴾^(٢)، ويقول في موضع آخر: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝﴾^(٣).

(١) مسلم (٢١٦٢/٤) : ٢٨٠٧ - كتاب المنافقين، والمسند (٣٠٢/٣)، وابن ماجه (١٤٤٥/٢) :

٤٣٢١ - كتاب الزهد - باب صفة النار).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٩).

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٢٦).

فكيف يغيب عنا كثيراً استحضار مثل هذه النعم، نسأل الله التوفيق والسداد والإعانة على شكره والاعتراف بنعمه إنه سميع مجيب.

جـ — نعمة سعة الرزق ورغد العيش:

إِنْ مِنْ نَعْمِ اللَّهِ الظَّاهِرَةِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يُوسِّعَ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ، حَتَّى يَكُونُوا فِي مَجْبُوحَةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَرَغْدٍ فِي الْمَطْعُومِ وَالْمَلْبُوسِ وَالْمَسْكُونِ وَالْمَرْكُوبِ، وَغَيْرِهَا مِنْ لَوَازِمِ الْحَيَاةِ، فَيَتَقَلَّبُونَ فِي هَذِهِ الْمَتَعِ، وَيَغْفُلُونَ عَنْ أَنَّ هُنَاكَ مِنْ حُرْمٍ مِنْ بَعْضِ الضَّرُورِيَّاتِ حَتَّى لَا يَجِدَ لَقِمَةَ الطَّعَامِ يَسُدُّ بِهَا جُوعَتَهُ، أَوْ كِسْوَةَ الْبِلَاسِ يَسْتُرُ بِهَا عَوْرَتَهُ، أَوْ جُرْعَةَ الدَّوَاءِ يَسْتَطِبُّ بِهَا مِنْ مَرَضِهِ، أَوْ الْمَسْكَنَ الْمُنَاسِبَ يُوَوِّيه وَأَسْرَتَهُ، يَحْتَمِي بِهِ مِنْ لَطَى الصَّيْفِ وَزَمْهَرِيرِ الشِّتَاءِ، فَكَمْ رَأَيْنَا أَقْوَاماً يَفْتَرِشُونَ الْأَرْضَ وَيَلْتَحِفُونَ السَّمَاءَ، لَيْسَ لَهُمْ مَرْكُوبٌ إِلَّا أَقْدَامُهُمُ الْخَافِيَةُ، مِنْ سَلَمٍ مِنْهُمْ مِنَ الْمَرَضِ فَقَدْ أَطْبَقَ عَلَيْهِ الْجُوعُ بِفَكْيِهِ، فَظَهَرَتْ عَلَيْهِ آثَارُ الْجَهْدِ وَسُوءِ التَّغْذِيَةِ، أَمَّا نَحْنُ فَهِيَ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا تَسَاقُ إِلَيْنَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَهِيَ بِحَمْدِ اللَّهِ مَتَوَفَّرَةٌ بِأَيْسَرِ الْأَثْمَانِ، فَهَلْ حَقَّ الْكَرِيمِ الْمَنَانُ مَا نَشَاهِدُهُ فِي وَاقِعِنَا مِنْ الْغَفْلَةِ وَالْعَصْيَانِ، وَلِذَا قُلْنَا ذَكَرَ اللَّهُ فَضْلَهُ بِسَعَةِ الرِّزْقِ وَرَغْدِ الْعَيْشِ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا وَقَرْنَهُ بِالشُّكْرِ لَهُ تَنْبِيهاً لِعِبَادِهِ أَنْ يَنْسِيَهُمُ الشَّيْطَانُ، أَوْ تَبْطَرَهُمُ النِّعَمُ، فَيَكُونُ لِسَانُ حَالِهِمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ قَارُونَ: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۖ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا

أَلْعَلَّمْ وَيَلْكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا
 الصَّابِرُونَ ﴿٨٣﴾ لِحَسَفَاتِهِمْ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ
 يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ
 تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَاهُ ۖ وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ
 الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ تِلْكَ آدَارُ الْأَخْزَةِ لِمَنْ جَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ
 وَلَا فَسَادًا ۖ وَالْعِقَبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٦﴾ ، ولنتذكر ما أخرجه الإمام أحمد
 والدولابي في الكنى^(١) - وهو صحيح - عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول
 الله ﷺ: " إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا مَا يَحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى
 مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ " ، قال أبو علي المدائني - رحمه الله -: كنت أسمع
 جَارًا لِي يَقُولُ فِي اللَّيْلِ: اللَّهُمَّ خَيْرِكْ إِلَيَّ نَازِلٌ، وَشَرِّي إِلَيْكَ صَاعِدٌ، وَكَمْ مِنْ
 مَلَكٍ كَرِيمٍ قَدْ صَعِدَ إِلَيْكَ بِعَمَلٍ قَبِيحٍ، أَنْتَ مَعَ غِنَاكَ عَنِّي تَتَحَبَّبُ إِلَيَّ بِالنِّعَمِ،
 وَأَنَا مَعَ فَقْرِي إِلَيْكَ وَفَاقَتِي أَتَمِّتُ إِلَيْكَ بِالْمَعَاصِي، وَأَنْتَ فِي ذَلِكَ تَجْهَرُنِي
 وَتَسْتَرْنِي وَتَرْزُقُنِي^(٢) .

(١) سورة القصص، الآيات (٧٨-٨٣).

(٢) المسند (١٤٥/٤)، الكنى (١١/١).

(٣) الشكر (٨٦: ٤٤).

وقال عبد الله بن ثعلبة - رحمه الله -: إلهي: من كرمك أنك كأنك تطاع فلا تعصى، ومن حلمك أنك تعصى وكأنك لا ترى، وأي زمن لم يعصك فيه سكان أرضك، فكنت والله بالخير عليهم عواداً^(١).

إن استشعار مثل هذه النعم، والاجتهاد في شكرها هو أقل ما يجب للمنعم سبحانه، وأعظم الأسباب لبقائها وزيادتها، وإلا فإنه ليس بيننا وبين الله عهد ولا ميثاق إن نحن أعرضنا وغفلنا، فهو القائل: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا

غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾^(٢)، ولنا في السابقين عبرة، فقد قال تعالى

عن قوم سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ

كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾^(٣) فَأَعْرَضُوا

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ

وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾^(٤) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا

الْكَافِرَ﴾^(٥)، يقول ابن كثير - رحمه الله - عند هذه الآيات^(٦): كانوا في

نعمة وغبطة في بلادهم وعيشتهم، واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث

الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا

كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد

(١) الشكر (٨٦: ٤٦).

(٢) سورة محمد، الآية (٣٨).

(٣) سورة سبأ، الآيات (١٥-١٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٣٠).

أيدي سبا شذر مذر، - إلى أن قال رحمه الله - فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة، والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدّلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم، وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق، وعدولهم عنه إلى الباطل. ١.هـ.

إن الاعتراف لله بهذه النعم السابعة جزء مهم من مكونات شكره، فقد قيل إن عبد الله بن مخمّر الشرعي عليه السلام قام على المنبر ونظر إلى الناس قد صفّروا وحمّروا واستراشوا - أي لبسوا الأصفر والأحمر والرياش - فقال: يا حسناؤه ويا جمالاه، بعد العدم، الخيام ضمن الأدم، والحوتكية^(١) والبرود، أصبحتم زهراً والناس غبراً، أصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون، ويعطون وأنتم تأخذون، وينتجون وأنتم تركبون، ويزرعون وأنتم تأكلون، فبكي وأبكاكم^(٢)، ولذا ثبت في صحيح مسلم والمسند والسنن^(٣) عن أنس عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا أوى إلى فراشه قال: "الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي له".

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٣٣٨/١): هي عمامة يتعممها الأعراب يسمونها بهذا الاسم، وقيل هو مضاف إلى رجل يسمّى "حوتكا" كان يتعمم هذه العمة.

(٢) الشكر (١٠٩-٩٦).

(٣) مسلم (٢٠٨٥/٤): ٢٧١٥ - كتاب الذكر والدعاء، وأبي داود (٣٠٢/٥): ٥٠٥٣ - كتاب الأدب - باب ما يقال عند النوم، والترمذي (٤٧٠/٥): ٣٣٩٦ - كتاب الدعوات - باب ما جاء في الدعاء إذا أوى إلى فراشه، والمسند (١٦٧/٣).

الباب الثاني: النعم الخاصة :

تقدّم في الباب السابق أن من نعم الله ما هو عام، ينتفع به جمهور البشر أو الأمة أو المجتمع، وفي المقابل هناك نِعَمٌ وآلاء يختص بها كل فرد على حدة، وهي إذا ما تأملناها عظيمة، وكثيرة في نفس الوقت إلا أن أكثر الناس لسان حالهم يظهر الجحود والإعراض عن الشكر وإسقاط المنعم بها بالمعاصي والآثام، فقد روى ابن أبي الدنيا^(١) عن مالك بن دينار أنه قال: قرأت في بعض الكتب: إن الله ﷻ يقول: "يا ابن آدم، خيري ينزل إليك، وشرك يصعد إليّ، وأتجب إليك بالنعم، وتتبعّض إليّ بالمعاصي، ولا يزال ملك كريم قد عرج إليّ منك بعمل قبيح".

وما أحسن الاعتراف بالتقصير أمام السيل المدرار من فضل الله، فقد روى عن علي بن الحسين - زين العابدين رحمه الله - أنه كان بمنى فظهر من دعائه أن قال: "كم من نعمة أنعمتها عليّ قلّ لك عندها شكري، وكم من بليّة ابتليتني بها قلّ لك عندها صبري، فيا من قلّ شكري عند نعمته فلم يحرمي، ويا من قلّ صبري عند بلائه فلم يخذلني، ويا من رآني على الذنوب العظام فلم يفضحني ولم يهتك سرتي، ويا ذا المعروف الذي لا ينقضي ويا ذا النعم التي لا تحول ولا تزول، صلّ على محمد وعلى آل محمد واغفر لنا وارحمنا"^(٢).

وفي صورة أخرى يظهر فيها الاعتراف بالتقصير أمام هذه النعم الوافرة فقد روى ابن أبي الدنيا^(٣) عن يونس بن عبيد، قال: قال رجل لأبي تيممة -

(١) الشكر (٨٥ : ٤٣).

(٢) الشكر لابن أبي الدنيا (٨٥ : ٤٢).

(٣) الشكر (٨٤ : ٤٠).

وهو طريف بن مجالد البصري - : كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بين نعمتين، لا أدري أيتهما أفضل: ذنوب سترها الله ﷻ فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودة قذفها الله ﷻ في قلوب العباد لم يبلغها عملي.

ولذا يقول ابن قدامة المقدسي^(١): اعلم أن ما من عبدٍ إلا إذا أمعن النظر رأى من نعم الله نعماً كثيرة لا يشاركه في ذلك كثير منهم، من ذلك العقل، فما من عبدٍ إلا وهو راضٍ عن الله سبحانه في عقله، يعتقد أنه أعقل الناس، وقلماً يسأل الله العقل، وإذا كان ذلك اعتقاده، فيجب عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك.

ومن ذلك الخلق، فإنه ما من عبدٍ إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها، وأخلاقاً يذمها، ويرى نفسه بريئاً منها، فينبغي أن يشكر الله تعالى على ذلك، حيث أحسن خلقه وابتلى غيره.

ومن ذلك أن ما من أحدٍ إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أركانها ما هو منفرد به، ولو كشف الغطاء عنه حتى اطلع عليه من الخلق لافتضح، فكيف لو اطلع الناس كافة؟ فلم لا يشكر الله بستر الجميل على مساويه، حيث أظهر الجميل وستر القبيح، - إلى أن قال رحمه الله - فإن من اعتبر حال نفسه وفتش على ما خص به، وجد الله تعالى عليه نعماً كثيرة، لا سيماً من خص بالإيمان، والقرآن، والعلم، والسنة، ثم الفراغ والصحة والأمن، وغير ذلك. ا.هـ.

إن هذه النعم التي خص الله بها كل فرد منا كثيرة جداً لا تحصى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾^(٢)، وقوله سبحانه: ﴿ألم

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص ٢٨٩).

(٢) سورة النحل، الآية (١٨).

تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ
ظَهَرَ وَبَاطِنَةً^١ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ
مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾^(١)، وعليه فيمكن أن ألخص جملة من هذه النعم فيما يلي:

الفصل الأول: نعم في الدين، وتشمل:

أ — نعمة الإسلام والإيمان وسلامة الاعتقاد:

إن نعمة الإسلام والإيمان أعظمُ نعمة أكرمنا الله بها، ولكننا لا نشعر بقيمتها
إلا حين نرى تلك المجتمعات الكافرة التي تغدُّ السير إلى نار جهنم زرافاتٍ
ووحداناً، شيباً وشباناً، ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ
أَنَّهُمْ مُّحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(٢).

إن المسلم ليدرك عظمة هذه النعمة إذا شاهد تلك المناظر التي تبعث
الأسى والعطف على أولئك البشر الذين يماثلوننا تماماً، غير أنهم انخرفوا عن
جادة الحق فأصبحوا من الخاسرين ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ
مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣)، ترى الشيخ والعجوز يعيشان
آخر ساعات عمرهما، ثم تتفكر كيف ستكون عاقبة هذا الجسد الذي ترعرع
على الكفر وشاب عليه، وتتذكر حينئذٍ أنه سيكون خطباً لجهنم، هذه الصورة
المؤلمة تجعلك تدرك عظم نعمة الإسلام الذي توجَّك الله به، ويقابل ذلك صورة

(١) سورة لقمان، الآية (٢٠).

(٢) سورة الكهف، الآية (١٠٤).

(٣) سورة آل عمران، الآية (٨٥).

أخرى ترى فيها طفلاً لم يميّز، قد رضع الكفر مع لبن أمّه، ولكم أثر في نفسي ذلك المشهد الذي رأيته في إحدى البلاد الإفريقية، حيث كنت خارجاً من صلاة الجمعة فلفت انتباهي أمام بناية مجاورة للمسجد، طابوران من الأطفال تتراوح أعمارهم بين الرابعة والسادسة يرددون نشيداً بلغتهم، فوقفت سائلاً مرافقي ماذا يفعلون ويقولون؟ ، فقال: هذه مدرسة تابعة للكنيسة النصرانية، وهذا نشيد يرددونه يومياً قبل الانصراف، يقولون بأن المسيح عليه السلام هو الذي يأتيهم بالمطر والرزق والخير، كانوا ينشدون وينظرون إلينا بكل براءة، فاعتصر قلبي الألم، وتذكرت ما أخرج به الشيخان^(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"، وأعظم من ذلك الصورة التي ذكرها القرآن لرجل عرف مقدار نعمة الإيمان التي أكرمه الله بها، يقول سبحانه في سورة الصافات: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۖ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۖ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَدِينُونَ ۖ قَالَ هَلْ أُنتُمْ مُّطَّلِعُونَ ۖ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ۖ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَتُرْدِينَ ۖ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۖ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۖ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۖ ﴾

(١) البخاري مع الفتح (٣/٢١٩: ١٣٥٩ - كتاب الجنائز - باب إذا أسلم الصبي)، ومسلم (٤/

٢٠٤٧: ٢٦٥٨ - كتاب القدر).

﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٢﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴿١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَذْكُرُنَا بهذه النعمة حتى لا نغفل عنها ونُدع شكرها، فيقول تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ ﴿٦٤﴾، بل يؤكد سبحانه أنه صاحب الفضل والمِنَّة في هذا الإيمان الذي نتشرف به فيقول: ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ ۖ بَلِ اللَّهُ يَمْنُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٦٥﴾، والمسلم مأمور أن يكرّر دعاء: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٦٧﴾ ﴿٤﴾، فدين الإسلام صراطٌ أسبغ الله به علينا النعمة وأتمم به الفضل، وفي الصحيحين ^(٥) عن طارق بن شهاب - رحمه الله - قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا نزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً،

(١) سورة الصافات، الآية (٥١-٦١).

(٢) سورة الحجرات، ١ لآية (٧).

(٣) سورة الحجرات، الآية (١٧).

(٤) الفاتحة، الآية (٦-٧).

(٥) البخاري مع الفتح (١/١٠٥: ٤٥ - كتاب الإيمان - باب زيادة الإيمان ونقصانه)،

ومسلم (٤/٢٣١٢: ٣٠١٧ - كتاب التفسير).

قال: فأَيُّ آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١)، فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه والمكان الذي نزلت فيه، نزلت على رسول الله ﷺ بعرفات في يوم الجمعة.

وقال شريح بن عبيد: كان مروان بن الحكم إذا ذكر الإسلام قال: بنعمة ربي لا بما قَدَّمْتُ يدي ولا بإرادتي، إني كنت خاطئاً^(٢)، وقال خالد بن معدان: سمعت عبد الملك بن مروان يقول: ما قال عبدٌ كلمة أحبَّ إليه وأبلغ في الشكر عنده من أن يقول: الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا إلى الإسلام^(٣)، وقال وهب بن منبه: رؤوس النعم ثلاثة: فأولها: نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها، والثانية: نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها، والثالثة: نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها^(٤)، ويقول جلُّ وعلا في سورة لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾^(٥)، قال مقاتل بن حيان: أما الظاهرة فالإسلام، وأما الباطنة فستره عليكم المعاصي^(٦)، فأين من يستشعر مثل هذه النعم العظيمة، ويقابلها بجزيل الشكر الذي يتعزَّز فيه

(١) سورة المائدة، الآية (٣).

(٢) الشكر (١٢٦ : ١١٨).

(٣) الشكر (٧٨ : ١٠).

(٤) الشكر (١٥٢ : ١٦٩).

(٥) سورة لقمان، الآية (٢٠).

(٦) الشكر (١٥٨ : ١٧٩).

المقال بالفعال، خصوصاً اجتناب ما يغضب الله، فقد أثر عن بعض السلف قوله: الشكر ترك المعصية^(١).

وأخيراً دعاء جميل جاء عن النبي ﷺ يناسب هذا المقام، فقد أخرج الإمام أحمد والطبراني والحاكم^(٢) عن رفاعة الزرقني رحمه الله قال: لما كان يومُ أحدٍ وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: "استووا حتى أثني على ربي ﷻ" فصاروا خلفه صفوفاً فقال: "اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائد بك من شرٍّ ما أعطيتنا ومن شرٍّ ما منعتنا، اللهم حَبِّبْ إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرِّهْ إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق".

ب — نعمة التوفيق للخير:

(١) الشكر (٨٥ : ٤١).

(٢) المسند (٤٢٤/٣)، والمعجم الكبير (٤٠/٥ : ٤٩٤٥)، والمستدرک (٥٠٦/١) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، لكن قال الذهبي في التلخيص: لم يخرجاه ليعيد وهو ثقة، والحديث مع نظافة إسناده أخاف أن لا يكون - ربما تكون صحة العبارة "أن يكون" - موضوعاً، رواه خلاد بن أبي ميسرة.

ينبغي أن يعلم أن التوفيق لعمل الخير نعمة امتن الله بها على عباده وتفضل بها سبحانه، ولنستمع لقوله سبحانه وهو يتكلم عن شهر رمضان وما نباشره فيه من الطاعات فيقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١)، فلا بدَّ للمسلم أن يتنبه لهذا الفضل من الله، حيث وفقنا سبحانه لفعل الخيرات، وعصمنا من الإعراض والمخالفة، بل وحبب لنا هذه العبادات ولو شاء سبحانه لتركنا فريسة للشياطين والشهوات، كما هو حال بعض الناس ممن أصبحوا أسرى لأهوائهم، فكهروا الخير، وتلذذوا بالمعاصي حتى ألفوها، ولا يدرك نعمة الله هذه إلا من عاش حياة أولئك العصاة، أو تأمل حالهم، ولذا يذكرنا المولى سبحانه بشيء من هذه النعم حتى تستفيق عقول غافلة ويستبين الحق لذي بصيرة، فيقول: ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ

(١) انظر: سورة البقرة، الآية (١٨٥).

إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ (١).

إن ما شاهدناه ونشاهده من تسابق إلى الخير، وبذله المال في وجوه الخير لأمر يبعث في النفس السرور، ويملأ القلب بهجة وطمأنينة، فالذي يرى تنافس أهل الخير في بذل الصدقات وتفطير الصائمين في كل البلاد والنواحي، وبخاصة في المسجد الحرام، لا يملك إلا أن يعظم الله الحمد والشكر على ما وفق له هؤلاء من حب الخير والتنافس فيه، ويعلم أن هذه السحب الوابلة من المعروف لا بد أن تترك الأثر الواضح إن شاء الله في دوام نعمة الأمن والاستقرار ورغد العيش وصحة الأبدان، ولإيضاح ذلك أعرض هنا نموذجين مختلفين يظهر منهما أثر عمل الخير وضده حتى يتبين للجميع أن من وفق لعمل الخير، واستطاع أن يكبح جماح شهوات نفسه فقد أوتي خيراً كثيراً، ففي صحيح مسلم ومسندي أحمد والطيالسي (٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابة يقول: اسق حديقة فلان فتتحي ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقة يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان — للاسم الذي سمع في السحابة — فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ قال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان

(١) سورة آل عمران، الآيات (١٠٢-١٠٣).

(٢) مسلم (٢٢٨٨/٤ : ٢٩٨٤ - كتاب الزهد والرقائق)، وأحمد (٢٩٦/٢)، والطيالسي (٢٥٨٧ : ٣٣٧).

لاسمك. فما تصنع فيها؟ قال: أما إذا قلت هذا، فإني انظر إلى ما يخرج منها، فأصدق بثلثه وأكل أنا وعتالي ثلثاً، وأردُّ فيها ثلثاً.

هكذا تفعل صنائع المعروف، ولكن الموفق من قهر نفسه ووطنها على فعله، وصدق الله القائل: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ^ط

فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ^ع أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾﴾^(١)، أما النموذج

الثاني فهو ما قصه الله في محكم تنزيله عن أصحاب الجنة حيث يقول: ﴿إِنَّا

بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿٤﴾ وَلَا

يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ

كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ آغْدُوا عَلَيْنَا حَرْثَكُمْ إِن كُنْتُمْ

صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ

مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَيْنَا حَرْدٌ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ

﴿٢٦﴾ بَلْ لَّحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾

قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ

يَتَلَوَّمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَنْوِيلَنَا إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا

(١) سورة يونس، الآية (١٦).

مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٣﴾ كَذَٰلِكَ أَلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾^(١).

قال سعيد بن جبیر - رحمه الله كانوا من قرية قرب صنعاء، وكان أبوهم قد خلّف لهم هذه الجنّة، وكان يسير فيها سيرة حسنة. فكان يرد فيها ما تحتاج إليه، ويدّخر لعياله قوت سنتهم، ويتصدق بالفاضل، فلما مات وورثه بنوه، قالوا: لقد كان أبونا أحقّ إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء، ولو أنّا منعناهم لتوفر ذلك علينا، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية، رأس المال والربح والصدقة، فلم يبق لهم شيء^(٢).

الفصل الثاني: نعمة العلم:

إن العلم نور يخرج به الإنسان من ظلمة الجهل، ويهتدي به إلى طريق الجنّة، ويسمو به على أهل عصره، فصاحبه يحمل تاجاً تزداد الجواهر المرصعة عليه بقدر سعة علمه ورسوخه فيه، حتى يصبح بديراً يتلأأ في سماء الأمة، تماماً كما كان أئمة الإسلام؛ ابن المسيب والحسن وأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والبخاري وغيرهم - رحمهم الله - شمساً أشرقت على التاريخ فملأت جوانبه، بل أصبحوا بحق هم التاريخ، ولولا ما تفضّل الله به عليهم من العلم لكانوا كالسواد الأعظم من الأمة الذين ماتوا لا نعرف عنهم

(١) سورة الفلم، الآيات (١٧ - ٣٣).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٤/٤٠٦).

شيئاً. بينما ساد أولئك العلماء الدنيا بعلمهم، وتربعوا على عرشها الأسمى
بعد عرش النبوة والرسالة، والله در القائل:

رأيت العلم صاحبه كريم ولو ولدته آباءً لنام^(١)

وقال آخر:

رفعت المال فوق العلم جهلاً لعمرك في القضية ما عدلتا^(٢)

إن النصوص الواردة في فضل العلم وعلو مكانته من الكتاب والسنة وكلام
الحكماء نثره ونظمه، كثيرة جداً لا يتسع المقام حتى لذكر قدر يسير منها،
ويكفي أن نعلم أن الإمام ابن عبد البر النمري القرطبي عالم الأندلس في وقته
ألف كتاباً جميلاً في ذلك سماه "جامع بيان العلم وفضله"، ولكن يهمننا في هذا
الموضع أن في ذلك حفزاً للنفوس أن تسارع إلى الاكتساء منه والتزين به،
والأمر الثاني أن ندرك فضل الله علينا بهذا النور الذي أشرق في قلوبنا،
خصوصاً في هذا العصر الذي لا يعرف له مثيل في التاريخ - والعلم عند الله -
حيث اتسع العلم وانتشر بين الناس صغيرهم والكبير، ذكرهم وأنثاهم، ولأهمية
العلم في بناء الفرد والأمة امتن الله على عباده به، فقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ

أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونٍ أَمْهَتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾^(٣) وقال أيضاً: ﴿وَمَا قَدَرُوا
اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ

(١) هو الإمام الشافعي (ديوانه ص ٧٤).

(٢) هو أبو إسحاق الألبيري (انظر: مجموعة القصائد المفيدة ص ٣٦٢).

(٣) سورة النحل، الآية (٧٨).

الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ۖ فَجَعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعِلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ تَعَالَى ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾^(١) وقال ممتناً على رسوله موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾^(٢)، وكذلك قال عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾^(٣)، وإذا أردت أن تعرف فضل الله عليك بهذا العلم فلاحظ الفرق بينك وبين فرد آخر يتخبط في أوحال الجهل وقد ظهرت آثار ذلك في سلوكه وتصرفه، في كلامه وتفكيره، بل حتى في هيئته ومظهره، ولربما ظننت أحياناً أنه معتوه أو ناقص عقل، والواقع أنها أغلال الجهل وظلمته، ولذا شبهه الله بالأعمى الذي لا يرى شيئاً، فقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾^(٤)، وبهذه المناسبة أسوق أبياتاً جميلة لأحد الشعراء يرفع فيها من شأن العلم فيقول^(٥):

يا تاركاً لمراضى الله أوطاناً وسالكا في طريق العلم أحزاناً
كن باذل الجد في علم الحديث تدل كل العلوم وكن بالأصل مشتانا

(١) سورة الأنعام، الآية (٩١).

(٢) سورة القصص، الآية (١٤).

(٣) سورة يوسف، الآية (٢٢).

(٤) سورة الرعد، الآية (١٩).

(٥) موارد الظلمات (٤٦/١) للسلطان.

فالعلم أفضل مطلب—وبِ وطالبه
والعلم نور فكن بالعلم معتصماً
وهو النجاة وفيه الخير أجمعه
وأرفع الناس أهل العلم منزلة
لا يهندي لطريق الحق من عمه
تلقاه بين الورى بالجهل منكسراً
والعلم يرفعه فوق الورى درجاً
ويقول آخر: (١)

فأجسامهم قبل القبور قيـو
ويقول آخر: (٢)

وأي رجاء في امرئ شاب رأسه
يروح ويغدو الدهر صاحب بطنة
إذا سئل المسكين عن أمـر دينه

وهل أبصرت عيناك أقبح منظراً
هي السوأة السوأة فاحذر شماتها
فخالط رواة العلم واصحب خيارهم
ولا تعدون عيناك عنهم فإنهم

من أكمل الناس ميزاناً ورجحاناً
إن رمت فوزاً لدى الرحمن مولانا
والجاهلون أخفُ الناس ميزاناً
وأوضع الناس من قد كان حيراناً
بل كان بالجهل ممن نال خسارنا
لا يدر ما زانه في الناس أوشانا
والناس تعرفه بالفضل إذعاناً

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله

وأفنى سنيه وهو مستعجم فـدم (٣)
تركب في أحضانها اللحم والشحم
بدت رحضاء (٤) العي في وجهه تسمو

من أشيب لا علم لديه ولا حكم
فأولها حزبي وآخرها ذم
فصحبتهم زين و خلطتهم عنم
نجوم إذا ما غاب نجم بدا نجم

(١) موارد الظمان (٥٤/١) للسلطان.

(٢) موارد الظمان (٥٥/١) للسلطان.

(٣) هو كثير الفهم العيني. انظر المعجم الوسيط (٦٧٧/٢).

(٤) قال ابن الأثير في النهاية (٢٠٨/٢): الرحضاء: هو عرق ينسل الجلد لكثرة.

فوالله لولا العلم ما اتضح الهدى ولا لاح من غيب الأمور لنا رسم

ولأجل ما حظي به صاحب العلم وتميّز به جعله النبي ﷺ موضع غبطة وحسد، ففي الصحيحين والمسند وابن ماجه^(١) عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: “ لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ”، وإن زين لك الشيطان أخي المسلم أن هذا العلم الذي أوتيته إنما حصل لك بسبب قوة حفظك أو وفرة مالك أو غير ذلك من الأسباب فلا تغفل عن مسبب الأسباب فهو الذي منحك العين التي تبصر وتقرأ بها، والأذن التي تسمع بها، والفؤاد الذي تعقل به، ولا تنس الآية التي ذكرت لها أنفأ وهي قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا...﴾ الآية، ولا تنس هذه الإمكانات من المدارس والعلماء والكتب مع التفرغ للعلم، وأحياناً تمنح لك المكافآت والحوافز، ولتعلم أن هذه تيسّرت لك وحرّم منها كثير، فأعظم لله الشكر على ذلك حتى يبارك لك في هذا العلم.

(١) البخاري مع الفتح (١/١٦٥: ٧٣ - كتاب العلم - باب الاغتياب في العلم والحكمة)، ومسلم (١/

٥٥٩: ٨١٦ - كتاب صلاة المسافرين)، والمسند (١/٣٨٥)، وابن ماجه (٢/١٤٠٧: ٤٢٠٨ -

كتاب الزهد - باب الحسد).

الفصل الثالث: نعمة العقل:

إن العقل من أعظم نعم الله على عبده، لأنه عند فقدده، يصبح لا قيمة له، بل يصبح وبالاً على أهله ومجتمعه، ويكون باطن الأرض خيراً له من ظهرها، لأنه ينزل عن درجة البهائم، وأشبه ما يكون بالدمى غير أنه يتحرك، ولقد صدق الشاعر حين يقول:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم^(١)
وبهذا تتحلى أهمية هذا الجزء بالنسبة للإنسان، والذي هو مناط التكليف في الديانات والقوانين، فإذا فقدت سقطت التكليف، وعلى قدر نقصه بالصغر أو الخرف أو غيرهما تحفُّ التكليف، ففي المسند وأبي داود والحاكم^(٢) عن عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة عن علي - وحده - وأحمد وابن ماجه وابن الجارود وابن حبان والحاكم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: "رفع القلم عن ثلاثة، عن المجنون المغلوب حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم"، وقال الحاكم عن حديث عمر: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي، وروى مسلم^(٣) عن أبي هريرة وابن عباس - واللفظ له - رضي الله عنهما، قالوا: لما

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى ضمن معلقته المشهورة. انظر: شرح المعلقات السبع (ص ٨٩).

(٢) المسند (١/١١٦، ١٤٠، ١٥٥)، وأبو داود (٤/٥٥٨-٤٦٠: ٣٨٢٣ - كتاب الحدود - باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً)، والترمذي (٤/٣٢: ١٤٢٣ - كتاب الحدود - باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد)، وابن ماجه (١/٦٥٨: ٢٠٤١، ٢٠٤٢ - كتاب الطلاق - باب طلاق المعتوه والصغير والنائم)، والمنتقى (١/٤٦، ٢٠٥: ١٤٨، ٨٠٨)، وصحيح ابن خزيمة (٢/١٠٣: ١٠٢)، والمستدرک (١/٢٥٨، ٢/٥٩، ٤/٣٨٩)، وإسناده صحيح.

(٣) مسلم (١/١١٦-١١٥: ١٢٥، ١٢٦ - كتاب الإيمان).

نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾^(١)،
دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء فقال النبي ﷺ: "قولوا سمعنا
وأطعنا وسلمنا"، قالوا: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا
يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا
تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾^(٢)، قال: قد فعلت، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾، قال: قد فعلت،
﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾^(٣)، قال: قد فعلت.

إنك لا تشعر بعظمة هذه النعمة إلا حين تشاهد من ابتلي بفقدائها، فترى في
حياته من البؤس والشقاء ما يجعلك تستهين بما دونه من المصائب، لأن هذه
المصيبة تُخرج صاحبها إلى عالم آخر هو في الحقيقة يختلف عن الإنسان والحيوان،
ولذا جعل الله ثواب هذه المصيبة يتناسب مع مقامها في نفس الإنسان، فقد روى
البخاري ومسلم في صحيحيهما^(٤) عن عطاء بن رباح - رحمه الله - قال: قال لي
ابن عباس ؓ: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى، قال: هذه المرأة
السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع، وإني أتكشّف، فادع الله تعالى لي،

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٤).

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٨٦).

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٨٦).

(٤) البخاري مع الفتح (١٠/١١٤: ٥٦٥٢ - كتاب المرضى - باب فضل من يصرع من الريح)،

ومسلم (٤/١٩٩٤: ٢٥٧٦ - كتاب النذر والصلوة والآداب)، وانظر أيضاً: المسند (١/٣٤٧)،

والطبراني (١١/١٥٧)، والخلية (٢/٧١).

قال: "إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوتُ الله تعالى أن يعافيك"،
فقلت: أصبر، ثم قالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها.

فإذا كان هذا جزاءً من يفقد عقله أحياناً، فكيف يكون جزاءً من فقدته
بالكلية، نسأل الله العافية والسلامة، وبهذه المناسبة فإنني أذكرُ بحديث مهمٍ ينبغي
أن يكون مَنَّا دائماً على بال، كلما رأينا أمثال هؤلاء المصابين، ففي الترمذي وابن
ماجه والبخاري والطحاوي^(١) - واللفظ له - من حديث عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول
الله ﷺ: "ما من رجل رأى مبتلى فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به،
وفضّلني على كثيرٍ ممن خلق تفضيلاً، إلا لم يصبه البلاء كائناً ما كان"، لكن
في إسناده عمرو بن دينار قهرمان آل الزبير وهو ضعيف (التقريب ٥٠٢٥: ٤٢١)
ولذا اختلفت رواية الحديث فمرة عن عمر وأخرى عن ابن عمر رضي الله
عنهما، وأخرجه الترمذي والطبراني في الصغير بنحوه لكن في إسناده عبد الله بن
عمر العمري - وهو ضعيف (التقريب ٣١٤ : ٣٤٨٩) -، وله شاهد أيضاً بنحوه
أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر رضي الله عنه، لكن في إسناده خارجة بن مصعب -
وهو متروك (التقريب ١٨٦ : ١٦١٢) - فلا يفرح بمثل هذا الشاهد.

بناءً على ما سبق يتبين لك أن نعمة العقل - هذا الجزء الرئيسي الذي لا
نحسه - لا يفوقها بعد نعمة الإسلام شيء، وحينئذٍ يكون لزاماً علينا أن نتوجه
إلى الله بكل أسباب الشكر على ما جملنا به من زينة العقل، إلا أن من المؤسف

(١) الترمذي (٤٩٣/٥: ٣٤٣١، ٣٤٣٢ - كتاب الدعوات - باب ما يقول إذا رأى مبتلى)، وابن
ماجه (١٢٨١/٢: ٣٨٩٢ - كتاب الدعاء - باب ما يدعو به الرجل إذا نظر إلى أهل البلاء)،
والطحاوي (٤: ١٣)، والمعجم الصغير (٤/٢: ٦٧٥)، ومسند البخاري (١٢٤/١: ٢٣٧)، والمجمع
(١٣٨/١٠).

جداً أننا قلّما نستشعر مثل هذه النعمة، جهلاً حيناً، وغفلةً في أحيان كثيرة، وكأنما نقول بلسان حالنا إن هذه النعمة حقٌّ واجبٌ لنا على الله، تعالى الله عن ذلك، ولذا نَبّه الله المسلم كثيراً إلى مكانة هذه النعمة وعظيم المنة لله بها، فقال تعالى في سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨)، إلا أنه سبحانه بيّن في مواضع أخرى قلة الشاكرين لمثل هذا الإفضال الكبير فقال في سورة الملك: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢٣).^(١)

إن أقلّ ما يقدّم للكریم هو الشكر على نعمائه، وهذا هو ما أمرنا به ربنا، فكيف يليق منّا هذا التجاهل والتنكّر، ناهيك عن مبارزة الله بالعقوق والمعاصي، وشرٌّ من هؤلاء جميعاً من استخدم نعمة العقل للإلحاد في دين الله، وصدّ الناس عن سبيل الله، وبذر أنواع الشبهات والشهوات بين عباد الله يصوّر حال هؤلاء

قولُ الشاعر^(٣):

أعلّمه الرماية كلَّ يوم فلما اشتدَّ ساعده رمانى
وكم علّمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني

(١) سورة النحل، الآية (٧٨).

(٢) سورة الملك، الآية (٢٣).

(٣) البيتان ينسبان لمالك بن فهم الدوسي كما في فصل المقال (١/٤٢١).

ألا يخشى هؤلاء أن يعاجلوا بالعقوبة فتسلب عقولهم وهم لا يشعرون،
والعبر في هذا الباب كثيرة، والله يمهّل ولا يهمل، فإذا سخط أخذ أخذ عزيز
مقتدر، نعوذ بك اللهم من فجاءة نقيمتك وتحول عافيتك، وأسباب سخطك،
أنت حسبنا ونعم الوكيل.

الفصل الرابع: نعمة السلامة في البدن:

إن كمال الخلقة للإنسان وجمال الصورة مما تتم به السعادة والهناء، ولا أدلّ على ذلك من حالة الذعر والألم والحزن الذي يصيب الوالدين حين يعرفان بقدوم مولود مشوّه.

إن قدومه كامل الخلقة حسناً المظهر من أعظم النعم على الأبوين، ويجب أن يُبادر ربنا بالشكر عليها بصرف النظر عن كونه ذكراً أو أنثى، وغير ذلك من الميزات التي تستشرف لها النفس، ولا تقنع بها مهما أوتيت منها، حتى لا نقع فيما وقع فيه من قصّ الله عنهم بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكْرَيْنِ ۖ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١).

نعم إذا كنّا مهما عبدنا الله وأخلصنا له لا نجازيه سبحانه على نعمة جزءٍ واحدٍ كالسمع أو البصر أو النطق أو اليد أو القدم أو غيرها الكثير، فكيف يكون الحال مع هذه الصورة الحسنة الكاملة، وصدق الله القائل: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢).

(١) سورة الأعراف، الآيات (١٨٩-١٩٠).

(٢) سورة غافر، الآية (٦٤).

إن الصورة لتتجلى بشكل أوضح في حال غني من أكبر أغنياء العالم أصيب بنقص أو تشوه في بدنه، فستجده على أتم الاستعداد أن يتنازل عن كامل ثروته مقابل أن يكتمل بدنه أو يذهب تشوّهه، وخير مثال على ذلك قصة الثلاثة من بني إسرائيل الأعمى والأقرع والأبرص، فقد روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، فأراد الله أن يتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟، قال: لون حسن وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد ربي الناس، قال فمسحه فذهب عنه قدره، وأعطني لونا حسناً وجلداً حسناً، قال: فأني المال أحب إليك؟، قال: الإبل — أو قال البقر —، قال: فأعطني ناقة عشراء — وهي الحامل التي أتى على حملها عشرة أشهر —، فقال: بارك الله لك فيها، قال: فأني الأقرع، فقال أي شيء أحب إليك؟، قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا الذي قد ربي الناس، قال: فمسحه، فذهب عنه، قال: وأعطني شعراً حسناً، قال: فأني المال أحب إليك؟، قال: البقر — أو قال: الإبل —، قال: فأعطني بقرة حاملاً، قال: بارك الله لك فيها، قال: فأني الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟، قال: أن يردّ الله إليّ بصري، فأبصر به الناس، قال: فمسحه، فردّ الله إليه بصره قال: فأني المال أحب إليك؟، قال: الغنم، فأعطني شاة والدأ — وهي التي عرف منها كثرة الولد والنتاج — فأنتج هذان وولّد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

قال: ثم إنّه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجلٌ مسكين، قد انقطعت بي الحبال — أي الأسباب — في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله

ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بغيراً أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرک الناس، فقيراً، فأعطاك الله؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا فرد عليه مثل مارد على هذا، فقال: إن كنت كاذباً، فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأعمى في صورته وهيبته، فقال: رجل مسكين، وابن سليل، انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي ردّ عليك بصرك، شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فردّ الله إليّ بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله.

فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتكم، فقد رضي عنك، وسخط على صاحبيك^(١).

فانظر كيف أن غاية مناهم هو اكتمال خلقتهم أو ذهاب العاهة عنهم، يقوله بكر بن عبد الله المزني - رحمه الله -: ^(٢) يا ابن آدم، إن أردت أن تعلم قدر ما أنعم الله عليك، فغمّض عينيك. وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حال، فقال له يونس: أيسرك ببصرك هذا الذي تبصر به مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيدك مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا.

(١) انظر: البخاري مع الفتح (٦/ ٥٠٠ : ٣٤٦٤ - كتاب الأنبياء - باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٥ : ٢٩٦٤ - كتاب الزهد).

(٢) انظر: الشكر (١٥٧ : ١٧٨).

قال: فبرجلك؟ قال الرجل: لا، قال: فذكره نعم الله ﷻ. فقال يونس: أرى عندك مائتين ألف، وأنت تشكو الحاجة! (١).

لقد ذكرنا الله في مواضع متعددة بهذه النعمة، حتى لا نغفل أبداً عن عظيم فضله سبحانه، إذ يقول تعالى في معرض حديثه عن خلق الإنسان: ﴿ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢).

إن قلة الشكر لهذه النعم مبعثه عدم استشعارها، ومن ثم إدراك قيمتها ومكانتها، ولذا كان رسول الله ﷺ - وهو من أكمل الناس صورة - يقول في دعائه الذي أخرجه الإمام أحمد وأبو يعلى من حديث ابن مسعود وابن حبان في صحيحه (٣) من حديث عائشة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول: "اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي"، وورد بسند ضعيف عند الطبراني في

(١) انظر: الشكر (١١٢: ١٠٠).

(٢) سورة السجدة (٦-٩).

(٣) المسند (١/٤٠٣، ٦/٦٨، ١٥٥)، وأبي يعلى (٩/٥١٨١: ١١٢)، والإحسان (٣/٢٣٩: ٩٥٩ -

كتاب الرقاق - باب الأدعية) وهو صحيح.

الأوسط وابن السنّي في عمل اليوم والليلة^(١) عن أنس رضي الله عنه أنه كان يقول ذلك إذا نظر إلى وجهه في المرآة.

وفضل الله لا يقف عند حدّ كمال الخلقة وجمال صورتها، بل يتعدى ذلك إلى الحفظ والسلامة من الآفات والأمراض التي تكدر على الإنسان هناء عيشه، فإن النبي صلى الله عليه وآله رسمها لأصحابه - كما في صحيح البخاري وغيره -^(٢) وقال: " هذه الأعراض إن أخطأه هذا فحشه هذا " .

ويروى عن داود عليه الصلاة والسلام^(٣) أنه قال: ياربّ، أخبرني ما أدنى نعمك عليّ؟ فأوحى الله إليه: يا داود تنفّس، فتنفّس، فقال: هذا أدنى نعمي عليك. وقال وهب بن منبه - رحمه الله -^(٤) عبّد الله عابدٌ خمسين عاماً، فأوحى الله إليه أني قد غفرت لك، قال: أي ربّ، وما تغفر لي ولم أذنب؟! فأذن الله لعرق في عنقه فضرب عليه، فلم ينم ولم يصلّ، ثم سكن فنام، فأتاه ملكٌ فشكا إليه فقال له: ما لقيتُ من ضَرَبَانِ العرقِ، فقال الملك: إن ربك يقول: عبادتك خمسين سنة تعدل سكون ذَا العرقِ.

كم نحن ملوك حقاً، وأغنياء صدقاً، بهذه العافية التي نرفل فيها، لأنها والله لو كانت تعرض بالثمن لعزّت على أكثر الخلق لغلاء ثمنها، واستأثرت بها أولئك الذين عضّتهم العاهات والأمراض، وتجرعوا غصص الحسرات

(١) انظر: المعجم الأوسط (١/٧٨٧: ٢٤٠)، والمجموع (١٠/١٣٩)، وعمل اليوم والليلة (٧٠: ١٦٤ - باب ما يقول إذا نظر في المرآة).

(٢) انظر: الفتح (١١/٢٣٥: ٦٤١٧ - كتاب الرقاق - باب في الأمل وطوله).

(٣) انظر: الشكر (١٤٦: ١٣٩).

(٤) انظر: الشكر (١٣٨: ١٤٥).

لمصائبهم في الخَلْقَة، ولذا قال وهب بن منبه - رحمه الله -: ^(١) مكتوب في حكمة آل داود: العافيةُ الملكُ الخفيُّ. ثم إن السلامة من البلاء الأشدَّ يعتبر نعمة في حدِّ ذاته، فقد قال حبيب بن عبيد الحمصي - رحمه الله -: ^(٢) ما ابتلى الله عبداً ببلاءٍ إلا كان لله عليه فيه نعمة ألا يكون ابتلاه بأشدَّ منه.

فهنيئاً لمن أيقظ الله قلبه وأنار بصيرته، فأدرك سابغَ نِعَمِ الله عليه وتنبَّه لتقصيره وإساءته في حقِّ الكريم المثنان، ثم غسل بحرارة دموعه وخشوع قلبه وإنابته لربه سواد جوارحه ودَرَنَ غفلته، وتعساً لمن أوغل في الجحود والنسيان، يظن أن هذه الصحة والعافية هي بما كسبت يداه، وصنَّعة عقله ومأله.

لقد تحدثت عن فضل الله علينا في كمال الخَلْقَة، وجمال الصورة، وأن ذلك من أعظم النعم التي تتم بها سعادة الإنسان في هذه الحياة، إذا تبَيَّنَ ذلك فليُعْلَم أن شكر هذه النعم من أهم أشكاله استعمالُ هذا البدن في طاعة الله ومرضاته، ومن أقبح الجحودِ والعدوان أن تستعين بهذا الفضل والخير على معصيته والتعدي على حرَماته، فتكون كالجائع الذي وجدَ طعاماً فملاً بطنه ثم بال على بقيته، قال رجل لأبي حازم - رحمه الله -: ما شكر العينين يا أبا حازم، قال: إن رأيت بهما خيراً أعلنته، وإن رأيت بهما شراً سترته، قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيراً وعيته، وإن سمعت بهما شراً أخفيت، قال: ما شكر اليدين، قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقاً لله هو فيهما، قال: ما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفلهُ طعاماً، وأعلاه علماً، قال: ما شكر الفرج؟ قال: كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ

(١) انظر: الشكر (١٢٧: ١١٩).

(٢) انظر: الشكر (١٣١: ١٢٨).

فَأَيُّهُمْ غَيْرُ مُلُومٍ ﴿٦﴾ فَمَنْ آتَبَعَنِي وَرَأَى ذَلِكَ فَأَوْلَيْتِكَ هُمْ الْعَادُونَ ﴿٧﴾^(١)، قال: فما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيت حياً غبطته، استعملت بهما عمله، وإن رأيت ميتاً مقتته، كففتهم عن عمله، وأنت شاكرٌ لله، وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثلُه كمثل رجل له كساء، فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فلم ينفعه ذلك من الحرِّ والبرد والثلج والمطر^(٢). وقال عبد الرحمن بن أسلم - رحمه الله -: ^(٣) الشكر يأخذ بِجَرْمِ ^(٤) الحمد وأصله وفرعه، قال: فليُنظر في نعمٍ من الله في بدنه وسمعه وبصره ويديه ورجليه، وغير ذلك، ليس من هذا شيء إلا وفيه نعمة من الله، حقٌّ على العبد أن يعمل بالنعم اللاتي هي في بدنه لله في طاعته، ونعمةٌ أخرى في الرزق حقٌّ عليه أن يعمل فيما أنعم به عليه في الرزق بطاعته، فمن عمل بهذا فقد أخذ بِجَرْمِ الشكر وأصله وفرعه. يقول العلامة ابن سعدي - رحمه الله تعالى -: ^(٥) واعلم أن من تفكَّر في كثرة نعم الله، وتفنَّن لآلاء الله الظاهرة والباطنة، وأنه لا وسيلة إليها إلا محض فضل الله وإحسانه، وأن جنساً من نعم الله لا يقدر العبد على إحصائه وتعداده، فضلاً عن جميع الأجناس، فضلاً عن شكرها، فإنه يضطر إلى الاعتراف التام بالنعم، وكثرة الثناء على الله، واستحيا من ربه أن يستعين بشيء من نعمه على ما لا يحبه ويرضاه، وأوجب له الحياء من ربه الذي هو من أفضل شعب الإيمان، فاستحيا من ربه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده، حيث أمره. اهـ.

(١) سورة المؤمنون، الآيات (٦-٧).

(٢) الشكر (١٢٩: ١٢٦).

(٣) الشكر (١٦٠: ١٨٤).

(٤) الجرم: الجسد كما في المعجم الوسيط (١/ ١١٨).

(٥) بهجة قلوب الأبرار (ص ٥٩ - ٦).

إننا جميعاً بحاجة إلى أن نتنبه قليلاً لنعلم بعض وظائف جوارحنا وأعضائنا من سيدنا وإمامنا - بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه - فقد روى مسلم في صحيحه وأحمد وأبو داود^(١) عن أبي ذر^{رضي الله عنه} أن النبي^{صلى الله عليه وسلم} قال: "يصبح على كل سلامي^(٢) من ابن آدم صدقة، تسليمه على من لقي صدقه، وأمره بالمعروف صدقة، ونهيهِ عن المنكر صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة، وبضعه أهله صدقة، ويجزئ من ذلك كله ركعتان من الضحى، قالوا: يا رسول الله، أأحدنا يقضي شهوته وتكون له صدقة؟!، قال: أرأيت لو وضعها في غير حلّها ألم يكن يأثم"، وفي رواية لأبي داود: "فله بكل صلاة صدقة، وصيام صدقة، وحج صدقة، وتسبيح صدقة، وتكبير صدقة، وتحميد صدقة".
الحديث

هكذا ينبهنا رسول الله^{صلى الله عليه وسلم} إلى ما ينبغي للمسلم أن يستعمل فيه ما أنعم الله به عليه، حتى لا تكون وبالاً عليه في الدنيا بأن يُسلبها، أو تتعطل منافعها، أو في الآخرة حيث تجني عليه سخط الله وعقوبته، لأن الله حين خلق هذا الإنسان، كان ذلك لحكمة بالغة، ثم أمدّه بالأسباب التي تتحقق معها هذه الحكمة، وزاد على ذلك إفضالاً عظيماً يزداد الإنسان به سعادة، فإذا بارز الله بالمعاصي مستخدماً فضل الله عليه، كان قد بلغ الغاية في التمرّد وسوء الأدب،

(١) مسلم (٤٩٨/١): ٧٢٠ - كتاب صلاة المسافرين، والمسند (١٦٧/٥)، وأبو داود (٦٠/٢):

١٢٨٥، ١٢٨٦ - كتاب الصلاة - باب صلاة الضحى).

(٢) السلامي: مفاصل أصابع الإنسان، وذكر ابن الأثير أنه يشمل أيضاً كل عظم من عظام ابن آدم.

انظر: النهاية (٣٩٦/٢).

ففي الصحيحين والمسند وأبي داود^(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إن الله كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناها النظر، والأذنان زناها الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطأ، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج ويكذبه".
 إن شكر الله سبحانه على اكتمال الخلق وسلامة البدن من العاهات والأمراض لا يقتصر على كف الجوارح عن المعاصي فقط، بل يتعدى ذلك إلى توجيهها إلى ما يرضي الله من الأفعال والأقوال، وخير نموذج في ذلك فعل الهادي البشير والسراج المنير فقد روى البخاري ومسلم^(٢) عن عائشة والمغيرة ابن شعبة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قام من الليل حتى تفتطرت قدماه، فقيل له: لِمَ تفعل ذلك بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، قال: "أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً".

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٢٦: ٦٣٤٣ - كتاب الاستئذان - باب زنى الجوارح دون الفرج)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٦: ٢٦٥٧ - كتاب القدر)، والمسند (٢/ ٢٧٦)، وأبو داود (٢/ ٦١١: ٢١٥٢ - كتاب النكاح - باب ما يؤمر به من غض البصر).

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ١٤): ١١٣٠ - كتاب التهجيد - باب قيام النبي ﷺ الليل، ٨/ ٥٨٤: ٤٨٣٦، ٤٨٣٧ - كتاب التفسير - باب ﴿يَغْفِرْ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ من سورة الفتح، ومسلم (٤/ ٢١٧١: ٢٨١٩، ٢٨٢٠ - كتاب صفات المنافقين -)، والترمذي (٢/ ٢٦٨: ٤١٢ - كتاب الصلاة - باب ماجاء في الاجتهاد في الصلاة)، والنسائي (٣/ ٢١٩ - كتاب قيام الليل - باب الاختلاف على عائشة في إحياء الليل).

الفصل الخامس: نعمة وفرة المال ورغد العيش:

إن كثيراً من الناس ربما يظن أن المال يقتصر على النقود المتداولة بينهم، والواقع أنه كما عرّفه أهل اللغة هو^(١): كل ما يملكه الفرد أو الجماعة من متاع أو عروض تجارة، أو عقار أو نقود أو حيوان أو نبات أو غيرها. والمال من أهم وسائل تحقيق الرغبات في الدار الدنيا، وبه تكتسي حياة الفرد سعادة تميّزه عن غيره، وهذا أمر دلّ عليه القرآن والسنة قبل العقل والفطرة، ففي سورة الكهف يقول سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾^(٢)، وفي سورة الحديد يقول تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^(٣)، وفي الصحيحين والمسند وغيرها^(٤) عن حكيم بن حزام رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إن هذا المال خضرٌ حلو، فمن

(١) انظر: المعجم الوسيط (٨٩٢/٢).

(٢) سورة الكهف، الآية (٤٦).

(٣) سورة الحديد، الآية (٢٠).

(٤) البخاري مع الفتح (٣/٣٣٥ : ١٤٧٢ - كتاب الزكاة - باب الاستغفار عن المسألة)، ومسلم (٢/

٧١٧ : ١٠٣٥ - كتاب الزكاة -)، والمسند (٣/٤٣٤)، والنسائي (١٠١/٥ - كتاب الزكاة - باب

مسئلة الرجل في أمر لا بد منه).

أخذه بحقه بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه،
وكان كالذي يأكل ولا يشبع“.

وقد يظن بعض الناس أن نعمة المال لا تكون إلا مع وفرته واتساعه، وهذا غير صحيح، لأنه أمر نسبي لا ينتهي عند حدٍّ في القلّة والكثرة، فمهما أعطي ابن آدم من المال فلا يزال يشعر بنقص ما لم يحصل عليه، وشدة الحاجة إليه، وليس من علاج لذلك إلا القناعة ومجاهدة النفس - كما سيأتي لاحقاً - ومن أظهر الأدلة على ما أسلفت ما أخرجه الشيخان وغيرهما^(١) عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: “يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان: الحرص على المال والحرص على العمر”، وفي الصحيحين وغيرهما^(٢) عن أنس وابن عباس وغيرهما رضي الله عنهم أن النبي ﷺ قال: “لو كان لابن آدم واد من مال لا بتغى إليه ثانياً، ولو كان له واديان لا بتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب”، وفي رواية “واد من ذهب”، وفي أخرى “واد من نخل”، وأوضح من هذه ما أخرجه مسلم والنسائي^(٣) عن عبد الله بن الشخير

(١) البخاري مع الفتح (٢٣٩/١١: ٦٤٢١ - كتاب الرقاق - باب من بلغ ستين سنة ...)، ومسلم (٢)

/٧٢٤: ١٠٤٧ - كتاب الزكاة)، والترمذي (٥٧٠/٤: ٢٣٣٩ - كتاب الزهد - باب ما جاء

في قلب الشيخ شاب على حبّ اثنتين).

(٢) البخاري مع الفتح (٢٥٣/١١: ٦٤٣٦ - كتاب الرقاق - باب ما يتقي من فتنة المال)، ومسلم (٢)

/٧٢٥: ١٠٤٨، ١٠٤٩ - كتاب الرقاق)، والترمذي (٥٦٩/٤: ٢٣٣٧ - كتاب الزهد - باب ما

جاء لو كان لابن آدم واديان من مال).

(٣) مسلم (٢٢٧٣/٤: ٢٩٥٨ - كتاب الزهد)، والنسائي (٢٣٨/٦ - كتاب الوصايا - باب الكراهية

في تأخير الوصية).

ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾^(١) فقال: " يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفريت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت "، وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة^(٢) مرفوعاً: " يقول العبد: مالي مالي، وإن له من ماله ثلاثاً: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركة للناس "، ومعنى " أقنى " أي ملأ غيره بطريق الصدقة أو الهبة أو الهدية أو غيرها. وبهذا يتبين لنا أن نعمة الله تتم علينا حتى وإن لم يكن المال كثيراً، ما دامت المتطلبات الأساسية من المطعم والملبس والمركب والمسكن قد توفرت، لأن ما زاد عن ذلك فهو غالباً من باب التكاثر الذي نوه الله عنه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وحينئذ لا يستشعر العبد نعمة الله عليه مهما كان عنده من المال، فيفوت عليه شكر نعمة الله التي يكتسب بها، وحتى أقطع حبال الشك التي ربما يتعلّق بها قلبك أخي المسلم أسوق لك هذه القصة الصحيحة التي عايش أحداثها سيد البشر بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه، ففي صحيح مسلم والموطأ والترمذي^(٣) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: " ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ " قالوا: الجوع يا رسول الله، قال: " وأنا والذي نفسي بيده

(١) سورة التكاثر، الآية (١).

(٢) مسلم (٤/ ٢٢٧٣: ٢٩٥٩ - كتاب الزهد).

(٣) مسلم (٣/ ١٦٠٩: ٢٠٣٨ - كتاب الأشربة)، والموطأ (٢/ ٩٣٢) - كتاب صفة النبي ﷺ - باب جامع ما جاء في الطعام والشراب)، والترمذي (١/ ٥٨٣: ٢٣٦٩ - كتاب الزهد - باب في معيشة النبي ﷺ).

لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا“ فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته المرأة، قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: “أين فلان؟“ قالت: ذهب يستعذب لنا الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أجد اليوم أكرم أضيافاً مني، قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا، وأخذ المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: إياك والحلوب فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شعبوا ورووا: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: “والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم“، والأنصاري هذا هو: أبو الهيثم بن التيهان كما عند الترمذي، وعنده رواية فيها: فقال رسول الله ﷺ: “هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظل بارد، رطب طيب وماء بارد“، وفي رواية لأحمد^(١) “فأخذ عمر العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البسر قبل رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: نعم إلا من ثلاثة، خرقة لف بها الرجل عورته، أو كسرة سد بها جوعته، أو جحر يدخل فيه من الحر والقر^(٢)“ فقولوا لي بربكم أين من لا يرى لربه نعمة ولا نعيماً إلا حين يكون له بيض القصور وسود المراكب، وثمين الحلل والملابس، وأرقى المطاعم؟

بقي أن أذكر أن شكر الله على هذه النعمة التي تفضل بها علينا لا يكون إلا مع إدراك أن هذا المال لله سبحانه، والعبد مجرد أمين عليه، ولذا جاءت

(١) المسند (٨١/٥).

(٢) هو البرد. انظر: المعجم الوسيط (٧٢٤/٢).

النصوص الشرعية بوضع الضوابط لتحصيله والاحتفاظ به، ثم إنفاقه، فهو في الحقيقة ليس حراً في الأخذ والإعطاء والإمساك، فالمال لله والجسد لله والوقت لله، وكل ما في الكون هو له سبحانه، وإنما الإنسان خليفة عليه، والويل له إن غفل أو تجاهل أو فرط، وأعظم من ذلك إن استكبر، فقد روى الترمذي^(١)، بسند صحيح عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " لا تزول قدما عبدٍ حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه وعن علمه ما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه "، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وأخرج الترمذي أيضاً والإمام أحمد في المسند والزهد^(٢) عن خولة بنت قيس رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: " إن هذا المال خضرٌ حلوٌ، فمن أصابه بحقه بورك له فيه، وربٌ متخوٌض فيما شاءت نفسه من مال الله ورسوله، ليس له يوم القيامة إلا النار "، وأخرجه البخاري بلفظ " إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حقٍ فلهم النار يوم القيامة "، وأخرج الحاكم والبيهقي^(٣) عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " لا تستبطئوا الرزق، فإنه لم يكن عبدٌ ليموت حتى يبلغه آخرُ رزقٍ هو له، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، أخذ الحلال وترك الحرام ".

(١) تقدم تخرجه في مبحث "نعمة الفراغ" من الفصل الثاني من الباب الأول.

(٢) البخاري (٢١٧/٦) - ٣١١٨ - كتاب الجهاد - باب قول الله تعالى: ﴿فَأَن يَّالِيَ خُمُسُهُ﴾، والترمذي (٤

/٥٨٧ - ٢٣٧٤ - كتاب الزهد - باب ما جاء في أخذ المال)، والمسند (٣٦٤/٦)، والزهد (٦٩: ١٥٢ - ما ذكر أن النبي ﷺ قال: " الدنيا خضرة حلوة ").

(٣) المستدرک (٤/٢)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وهو كما قال، والبيهقي (٥/٢٦٤ - كتاب البيوع - باب الإجمال في طلب الدنيا).

أخي المسلم: ها هو المال بين يديك، لكن يجب أن تعلم أن إنفاقه له ضوابط تجعلك في دائرة الشكر، ومتى حصل الإخلال بها انزلت الإنسان إلى مستنقع الجحود والكفر، كما حصل لصاحب الجنتين الذي قصَّ الله لنا حكايته في القرآن حيث قال سبحانه: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۖ كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ؕ آتَتْ أَكْلَهُمَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ۖ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ۖ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۖ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ۖ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۖ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۖ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۖ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۖ إِنَّ تَرَنِّيًا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا ۖ وَوَلَدًا ۖ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۖ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُدًى ۖ وَاحْيِطْ بِثَمَرِهِ ۖ فَاصْبِرْ يُقَلِّبْ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۖ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۖ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۖ هُوَ

خَيْرُ ثَوَابًا وَخَيْرُ عُقْبًا ﴿١﴾، إِذَا فَصَّمَامَ الْأَمَانَ لِبَقَاءِ نِعْمَةِ الْمَالِ وَالتَّمَتُّعِ
 بِلَذَّتِهِ هُوَ الشُّكْرُ لِلْمُنْعَمِ سُبْحَانَهُ وَالاعْتِرَافُ لَهُ بِالْفَضْلِ قَلْبًا وَقَالِبًا، وَأَنْ يَكُونَ
 التَّصَرُّفُ فِي الْمَالِ وَفْقَ مَا أَمَرَ بِهِ تَعَالَى، فَهَنَّاكَ مَا أَمَرَ الْعَبْدَ بِالْإِنْفَاقِ فِيهِ كَالزَّكَاةِ
 وَالصَّدَقَةِ وَالنَّفَقَةِ عَلَى النَّفْسِ وَالْأَهْلِ، وَهَنَّاكَ مَا نَهَى عَنِ النَّفَقَةِ فِيهِ كَشُرَاءِ
 الْحَرَّمَاتِ مِنَ الْمَطْعُومَاتِ وَالْمَلْبُوسَاتِ وَآلَاتِ اللَّهْوِ وَمَا يَجْلِبُ ضَرَرًا حَسِيًّا أَوْ
 مَعْنَوِيًّا لِلنَّفْسِ أَوْ الْغَيْرِ، وَهَنَّاكَ قِسْمَ ثَالِثٍ وَهُوَ الْمَبَاحُ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُتْرَكْ
 لِلْمُسْلِمِ حُرِيَّةُ التَّصَرُّفِ فِيهِ كَيْفَ شَاءَ، بَلْ نَبَّهَهُ اللَّهُ إِلَى الْوَاجِبِ فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:
 ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٢)،
 وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ
 فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٣) إِنَّ رَبَّنَا يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ
 بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٤)، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ لَفْظَةٌ مُهِمَّةٌ لِلْسَامِعِينَ، وَهِيَ
 أَنَّ هَنَّاكَ حَكْمًا عَظِيمَةً فِي اخْتِلَافِ دَرَجَاتِ النَّاسِ فِي الْمَالِ، وَلَعَلَّ مِنْ هَذِهِ
 الْحُكْمِ الْكَثِيرَةِ مَا يَلِي:

أَوَّلًا: أَنَّ يَعْرِفَ مَنْ أَوْسَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذَا شَهِدَ
 مَعَانَاةَ الْفُقَرَاءِ وَالْمُعْدِمِينَ، وَالْبُؤْسَ وَالشَّقَاءَ الَّذِي تَكْتَسِي بِهِ حَيَاتِهِمْ، تَمَامًا كَمَا
 يَعْرِفُ الْمَعَافَى نِعْمَةَ الصَّحَّةِ إِذَا شَهِدَ الْمَرْضَى وَالْمَبْتَلِينَ.

(١) سورة الكهف، الآيات (٣٢-٤٤).

(٢) سورة الفرقان، الآية (٦٧).

(٣) سورة الإسراء، الآيات (٢٩-٣٠).

ثانياً: أن لا يفرح الإنسان بكثرة المال وبسط الرزق، لأنه ربما كان فتنةً وامتحاناً له أو قد يكون استدراجاً، وقد وصف علي رضي الله عنه الدنيا فقال: دار من صحَّ فيها هرم، ومن سقم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها النار^(١).

(١) انظر: عدة الصابرين (١/١٩٢).

الفصل السادس: نعم في الأهل والولد:

إن الإنسان ربما رزقه الله جملة من الأبناء الذكور، ومع ذلك يضيق ذرعاً بهم، لأنهم فقدوا بعض الموصفات والمميزات المرغوبة، فتسود الدنيا في عينيه، وعمقت الحياة بسبب ذلك.

صحيح أن هذه الأمور مطالب مهمة لبني آدم، لكن من الإنصاف والاعتراف لله بالفضل أن لا ننسى النعم التي تمت، ومنها أن وهبنا هؤلاء الأبناء، بينما رزق غيرنا البنات، وهم خير ممن حرموا الأولاد جميعاً ذكورهم وإناثهم، يقول سبحانه في سورة الشورى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^١ تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ^٢ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ^٣ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا^٤ وَجَعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا^٥ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ^٦﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ^٧ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ^٨﴾^(٢).

لنتذكر نعمة صلاح الأبناء واستقامتهم، لأن هناك من ابتلي بأولادٍ فجرةٍ متمردين، قد ساءت أخلاقهم، وانحرف سلوكهم، فأصبحوا وبلاً على مجتمعهم، شقاءً وعاراً على أهلهم، فالأب والأم يعيشان جحيماً دائماً بسبب

(١) سورة الشورى، الآيات (٤٩-٥٠).

(٢) سورة النحل، الآية (٧٢).

الآثار الناتجة عن جنوح أبنائهم، وما أخبار الشباب والشابات الذين وقعوا في فخّ المخدرات عنّا ببعيدة.

لنتذكر أيضاً نعمة السلامة في عقولهم والصحة في أبدانهم، فنحن نرى نماذج من أولئك الأطفال الذين أصيبوا بإعاقة في عقولهم أو أجسامهم تجعل حالتهم لا تطاق أحياناً، فيتمنّى الوالدان موت هذا الابن، مع ما عرفنا من جيلة المودّة والحنان في قلوبهما، لكن شراسة المشكلة قطعت أوصال تلك الحبة والشفقة، وهناك أطفال أصيبوا بأمراض خطيرة أو مزمنة شغلت الفكر والوقت، واستنفدت الجهد والمال، وربما نقلت هذه الأسر من سعادة الغنى والاستقرار، إلى شقاء الغربة والفقر، مع ما بين ذلك وفي أثنائه من المصائب والهموم العظيمة وأذكر أنني سمعت أن رجلاً ثرياً أصيبت ابنة له بداء السرطان - عافانا الله وإياكم - في دمها، فطاف بها على كلّ الأطباء والمستشفيات التي يظنّ العلاج فيها، ورحل بها إلى بلاد كثيرة وأنفق على علاجها ما يزيد عن خمسة وعشرين مليوناً من الريالات، فكيف تكون الحال لو أن هذه المصيبة نزلت بمعسور الحال؟، إذ ربما افترس الموت حبيبته وفلذة كبده، وهو لا يستطيع صرفاً ولا عدلاً، إلا أن يتجرع مرارة الحسرة، وألم المصيبة.

أليست هذه نعمٌ عظيمة تستحق الشكرَ الله المتفضلّ بها، وهو القادر على سلبها في لحظة واحدة، ولكن صدق الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(١)، ويخشى المسلم أن يكون مثل من

(١) سورة البقرة، الآية (٢٤٣).

عناهم الله بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ^ط فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٣١﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾﴾^(١)، قال العلامة ابن كثير - رحمه الله -^(٢): صالحاً: أي بشراً سوياً، كما قال الضحاك عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة، وكذلك قال أبو البخري وأبو مالك: أشفقا أن لا يكون إنساناً.

إن إلهنا ومولانا يلفت انتباهنا لبعض النعم التي ركبها فينا فكأنه يُذكر بفقدائها، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ^ط وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾^(٣)، ثم أسوق هذا الحديث لبعض أولئك الذين يتأففون من نعمة الله عليهم بأن رزقهم البنات دون البنين، فقد أخرج الشيخان^(٤) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: "من ابتلي من هذه البنات بشيء، فأحسن إليهن كنَّ له ستراً من النار".

(١) سورة الأعراف، الآيات (١٨٩-١٩٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٧٤/٢).

(٣) سورة السجدة، الآية (٩).

(٤) البخاري مع الفتح (٣/٢٨٣: ١٤١٨ - كتاب الزكاة - باب اتقوا النار ولو بشقِّ تمر)، ومسلم (٤).

/٢٠٢٧: ٢٦٢٩ - كتاب البرِّ والصلة).

الفصل السابع: نعمة السلامة من الهمِّ والغمِّ:

إن السعادة التي ينشدها كل فرد منّا ليست سعادة حسية فقط تتجلى صورتها في مال وفير، وجسد صحيح، وكثرة في الأهل والأولاد، بل هناك السعادة الأهم، وهي السعادة المعنوية، والتي لا يطيب العيش للإنسان إلاّ بها، مهما ملك من الأموال وأوتي من الأولاد، والهمُّ والغمُّ من أقوى السهام الجارحة لتلك السعادة، التي ربما أبقّت في حياة الواحد جرحاً نازفاً يأتي على بقية حياته الحقيقية، وكلّما ضعف الإيمان واليقين، كلّما زحفت جيوش الهموم لتستولي على مساحة أكبر، يدخل معها القلب إلى قفار مظلمة مخيفة يتخيّل معها شقاءً حاضراً ونهاية تعيسة، ولذا نجد كثرة حالات الانتحار في المجتمعات الكافرة، ويقابل ذلك قلة في المجتمعات المسلمة والله الحمد.

والهمُّ والغمُّ يحصل للإنسان بسبب خوفٍ من سوء حاضر أو مستقبل، ولما يحدثه من أثر بالغ على حياة المسلم، تتكدر معه حياته وتضطرب أموره رأينا رسول الله ﷺ يتعوذ بالله منه، فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما^(١) عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال".

والهمُّ له أسباب كثيرة، وقد يكون كبيراً يحيط بالقلب ويطبق عليه، وتصبح الدنيا بسعتها ورحابة أفقها أضيق من ثقب إبرة، وتأمّل معي صورة من صور الغمِّ التي ذكرها القرآن، حيث يقول سبحانه في سورة الأنبياء حكاية عن يونس عليه السلام: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى

(١) البخاري مع الفتح (١١/١٧٦: ٦٣٦٧ - كتاب الدعوات - باب التعوذ من فتنة المحيا والمات)، ومسلم (٤/٢٠٧٩: ٢٧٠٦ - كتب الذكر)، والترمذي =

فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾
 فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُثَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾^(١) فعلى
 كلِّ مسلم حزنه أمر أو حلٌّ به همٌّ أو غمٌّ، أو نزل به كرب أن يلجأ إلى مثل
 هذا الدعاء النافع.

المهم أن المسلم لا يشعر بهذه النعمة التي هي السلامة من الهمِّ والغمِّ
 وأسبابهما إلا حين يتلظى بشيء من ذلك، أو يرى كيف تكون حياة من نزل
 بهم، حيث تترحل البسمة عن وجوههم، وتحل مكانها الكآبة والحزن، فلا
 يشعر بما حوله من أسباب السعادة كالأهل والمال وجمال الطبيعة، فالتناس في
 واد، وهو في واد آخر تملؤه الحيات والأشواك، لا يذوق من لذة النوم ما يجده
 غيره، ولا يحس بطعم الأكل والشراب مهما كان طيباً، أليس من سلم من ذلك
 يسبح في نعم عظيمة، لكن أين الاعتبار، هيهات، فحريُّ بنا استشعار مثل هذا
 الفضل، ولا نحسب أن النعم هي ما يأتي للإنسان ويحصل عليه فقط، بل العدم
 أحياناً يعتبر نعمة عظيمة، كما هو الحال مع إجابة الدعاء، فإن الله من حكمته
 البالغة قد يصرف بدلاً عن جلب الخير شراً كان سيصيب الداعي وذلك خير
 له، وحينئذٍ فلا يظن أن الله لم يجب دعاءه.

ومن أعظم الوسائل المعينة على دفع الهم والغمِّ الإيمان بالقضاء والقدر،
 وكمال اليقين بعلم الله وحكمته، وحسن الظنِّ به سبحانه، وحينئذٍ يصبح

= (٥/٥٢٠ : ٣٤٨٤، ٣٤٨١ - كتاب الدعوات - باب "٧١")، وأبو داود (١٨٩/٢ : ١٥٤٠)،

١٥٤١ - كتاب الصلاة - باب في الاستعاذة، والنسائي (٢٥٧/٨ - كتاب الاستعاذة - باب

الاستعاذة من البخل).

(١) سورة الأنبياء، الآيات (٨٧-٨٨).

المسلم في راحة وطمأنينة مهما نزل به من مصيبة، لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الآجال والأرزاق مكتوبة محدّدة، لا يزيدنها حرص حريص، ولا ينقصها كسل أو جهل، وهذه حال يحسد - والله - من بلغها، ولكن البلوغ يحتاج إلى صبر ومصابرة: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(١)، وليستعن للوصول إليها بعد الله بكثرة الذكر لأنه من أعظم الأسباب الجالبة لسكون القلب وطمأنينته ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢)، نعوذ بك اللهم من الشقاء في الدنيا والآخرة، ونسألك عيشاً هنيئاً، وقرّة عين لا تنقطع.

(١) سورة فصلت، الآية (٣٥).

(٢) سورة الرعد، الآية (٢٨).

الخاتمة :

لقد تحدثت في ثنايا هذا البحث عن أصناف كثيرة من النعم التي أنعم الله بها علينا معاشر المسلمين، بل واختصنا ببعضها، وقصدي بذلك تعليم الجاهل وتذكير الغافل، حتى نعلم منة الله العظيمة علينا، فنزداد له شكراً، ونكثر له ذكراً، وتعظم محبته وإجلاله في قلوبنا، ونذكر أنه سبحانه أعطانا الكثير الوفير فضلاً منه وعطفاً ورحمة، وطلب القليل اختباراً ليعلم العبد المحبّ المعترف بفضل ربه من الجاحد المعرض، قال سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾^(١)، وقال أيضاً: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾^(٢)، وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۗ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾^(٣). لقد ذكرت في الفصول الماضية نعم الله علينا بدين الإسلام، وسلامة المعتقد، والصحة في العقل والبدن، وأيضاً نعمة الأولاد، والفراغ، والعلم، والتوفيق للخير، والسعة في

(١) سورة آل عمران، الآيات (٧٣-٧٤).

(٢) سورة يونس، الآية (٥٨).

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٨٠).

الرزق والمال، وأعظم من ذلك الأمن والاستقرار، وغير ذلك من نعم الله التي لا تحصى، والذي أدى الجهل بها أو الغفلة عنها، إلى نوع من الجحود، والإعراض عن شكر المنعم عند بعض الناس، بل كان سبباً في الإحباط والتشاؤم عند البعض، وصاحب ذلك عندهم قلق وشقاء دائم في القلب، مع أنهم لو تفكروا فيما خصَّهم الله به من النعم وسلَّمهم من الشرور العظيمة، لأدركوا أي هناءٍ يعيشون، وأنهم على ذلك يُغبطون ويُحسدون، بل إن مخالفة العاصي بفعل الذنب أو التقصير في الواجب يوحى بالجهل بالنعم أو غفلة عنها، لأن من يعرف إفضال الله عليه لابد أن يحمله مجرد الحياء من الله على البعد عما يغضبه سبحانه، وإلا فكيف يليق أن تستعين بنعمه ومدده على حربه والتمرد عليه، هذا لا يليق لا شرعاً ولا عقلاً ولا عرفاً ولا حتى خلقاً، وما هؤلاء إلا كما قال الشاعر^(١):

أعلِّمه الرماية كل يوم فلماً اشتدَّ ساعده رماني

وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني

وهاك محادثة ينقلها لنا القرآن الكريم بين رجلين أحدهما: شاكر لأنعم الله والثاني: جاحد لها وكافر لفضل ربه، قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۚ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهُمَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ۚ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُخَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ

(١) سبق بيان القائل .

مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٢﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٣﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٤﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٥﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٦﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٧﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٣٨﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٣٩﴾ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأُصْبِحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٠﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤١﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٢﴾ ^(١)، إنها نهاية طبيعية لكل منكر لنعم الله في أي زمان ومكان، وهذه عقوبة واحدة، وأشكال العقوبات لا تحصى.

والناس في إنكار النعم على أقسام: منهم من ينسبها لغيره كالذكاء والقوة والحظّ والنجوم والأوثان، ومنهم من لا يرى لله أيّ نعمة بسبب مصيبة واحدة نزلت به، ومنهم من لا يرى النعم إلا في أصناف محدّدة كالمال والجاه والصحة والأولاد.

(١) سورة الكهف، الآيات (٣٢-٤٤).

وقد حرصت في هذا البحث أن يكون فيه تميّز وجديد عن الكتب والبحوث المصنفة في هذا الموضوع، حتى يجد الباحث والقارئ فوائد واضحة وملموسة حين المطالعة فيها، ويمكن أن أجلي أبرز هذه الميّزات والفروق فيما يلي:

١- تقسيم البحث وتصنيفه إلى موضوعات تفصيلية يسهل معها التناول وتعمق الفائدة في الاستدلال والفهم للعناصر الرئيسة.

٢- وأهم من ذلك ربط وتدعيم هذه الموضوعات بما فيها من أحاديث وآثار بنصوص القرآن الكريم والتي هي من الكثرة والوضوح بحيث تزيد عن الأحاديث والآثار مجتمعة، ولا يخفى أنها أقوى في الدلالة وأصح من حيث الثبوت.

٣- ربط موضوعات البحث بواقع المسلمين أفراداً ومجتمعات حتى لا تصبح هذه النصوص وموضوعاتها قضايا نظرية يخفى على المسلم علاقتها بواقعه، وحينئذٍ تتلاشى الفائدة من عرضها وسياقها.

وختاماً أسأله سبحانه أن يسبغ علينا من واسع فضله ووافر مننه وأن يوزعنا شكرها ويبارك لنا فيها إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس المصادر والمراجع *

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان، لابن بلبان الفارسي، ت: الحوت، ش: دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٧هـ.
- ٣- البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، ش: مكتبة المعارف- بيروت.
- ٤- بهجة قلوب الأبرار، للعلامة ابن سعدي، ش: أبناء المؤلف عام ١٣٨٨هـ.
- ٥- ترتيب القاموس المحيط، للطاهر أحمد الزاوي، ش: عيسى البابي الحلبي- القاهرة ١٩٧١م.
- ٦- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، ت: غنيم، عاشور، البناء، ش: دار الشعب - مصر.
- ٧- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، ش: دار الفكر - بيروت.
- ٨- تقريب التهذيب، لابن حجر، ت: محمد عوامة، ش: دار الرشيد - حلب، ١٤٠٦هـ.
- ٩- تيسير الكريم الرحمن، لابن سعدي، ت: النجار، ش: المؤسسة السعيدية - الرياض.
- ١٠- جامع الأصول، لابن الأثير، ت: عبد القادر الأرناؤوط، ش: مطبعة الملاح - بيروت، ١٣٩١هـ.
- ١١- جامع البيان، لابن جرير الطبري، ش: الحلبي - مصر، ١٣٨٨هـ.
- ١٢- ديوان الشافعي، جمع: محمد عفيف الزعفي، ش: دراسة الزعبي- بيروت ١٣٩٢هـ.

*لقد استخدمت من باب الاختصار رموزاً في هذا الفهرس لا بد من بيانها للقارئ وهي: ت = التحقيق، ش = الناشر.

- ١٣- سنن ابن ماجه، ت: فؤاد عبد الباقي، ش: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٣٩٥هـ.
- ١٤- سنن أبي داود، ت: الدعاس، ش: محمد السيد - حمص، ١٣٨٨هـ.
- ١٥- سنن البيهقي، ش: دار الفكر - بيروت.
- ١٦- سنن الترمذي، ت: أحمد شاكر، ش: المكتبة الإسلامية.
- ١٧- سنن الدارمي، ش: دار إحياء السنّة النبوية.
- ١٨- سنن النسائي، ش: دار الفكر - بيروت، ١٣٩٨هـ.
- ١٩- شرح المعلقات، للزوزني، ش: دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت.
- ٢٠- الشكر، لابن أبي الدنيا، ت: السوّاس - الأرنؤوط، ش: دار ابن كثير - بيروت، ١٤٠٧هـ.
- ٢١- صحيح الجامع الصغير، للألباني، ش: المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ.
- ٢٢- صحيح مسلم، ت: فؤاد عبد الباقي، ش: دار الفكر - بيروت، ١٣٩٨هـ.
- ٢٣- عمل اليوم والليلة، لابن السنّي، ت: عبد القادر عطا، ش: دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٩هـ.
- ٢٤- فتح الباري، لابن حجر، تعليق: الشيخ ابن باز، ترتيب وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، ش: المطبعة السلفية - القاهرة.
- ٢٥- فتح القدير، للشوكاني، ش: دار الفكر - بيروت.
- ٢٦- فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد، لفضل الله الجيلاني، ش: المطبعة السلفية - القاهرة، ١٩٧٨م.
- ٢٧- فضيلة الشكر، للخراطمي، ت: مطيع الحافظ، ش: دار الفكر - دمشق، ١٤٠٢هـ.
- ٢٩- الكنى والأسماء، للدولابي، ش: دائرة المعارف العثمانية - الهند، ١٣٢٢هـ.
- ٣٠- مجمع الزوائد، للهيتمي، ش: دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٠٢هـ.

- ٣١- مجموعة القصائد المفيدة، ش: مكتبة الرياض- الرياض.
- ٣٢- مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي، ت: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، ش: دار البيان - دمشق، ١٣٩٨هـ.
- ٣٣- مدارج السالكين، لابن القيم، ت: محمد حامد الفقي، ش: مكتبة السنة المحمدية - مصر، ١٣٧٥هـ.
- ٣٤- المستدرک، للحاكم، ش: مطابع النصر - الرياض.
- ٣٥- المسند، للإمام أحمد، ش: المكتب الإسلامي - بيروت.
- ٣٦- المسند للحميدي، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، ش: دائرة المعارف العثمانية - الهند.
- ٣٧- مسند الشهاب، للقضاعي، ت: حمدي السلفي، ش: مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٠٧هـ.
- ٣٨- المسند، لأبي يعلى، ت: حسين أسد، ش: دار المأمون-دمشق، ١٤٠٧هـ.
- ٣٩- المسند، للطيالسي، ش: دائرة المعارف العثمانية - الهند، ١٣٢١هـ.
- ٤٠- مصنف ابن أبي شيبة، ت: الحوت، ش: مكتبة الرشيد-الرياض ١٤٠٩هـ.
- ٤١- المعجم الصغير، للطبراني، ت: محمد امير، ش: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ.
- ٤٢- المعجم الكبير، للطبراني، ت: حمدي السلفي، ش: مطبعة الأمة - بغداد.
- ٤٣- المعجم الوسيط، لجماعة من الأساتذة في مجمع اللغة العربية، ش: المكتبة الإسلامية - إستانبول.
- ٤٤- موارد الظمان في زوائد ابن حبان، للهيثمي، ت: عبد الرزاق حمزة، ش: المطبعة السلفية- مصر.
- ٤٥- موارد الظمان لدروس الزمان، للشيخ عبد العزيز سلمان، ش: المؤلف - الرياض، ١٣٩٨هـ.

- ٤٦ - الموطأ، للإمام مالك، ت: فؤاد عبد الباقي، ش: الحلبي- مصر.
- ٤٧ - مؤلفات الشيخ الإمام محمد عبد الوهاب، ت: مجموعة من الأساتذة، ش: جامعة الإمام - الرياض.
- ٤٨ - النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، ت: محمود الطناحي - طاهر الزاوي، ش: المكتبة الإسلامية، ١٣٨٣هـ.